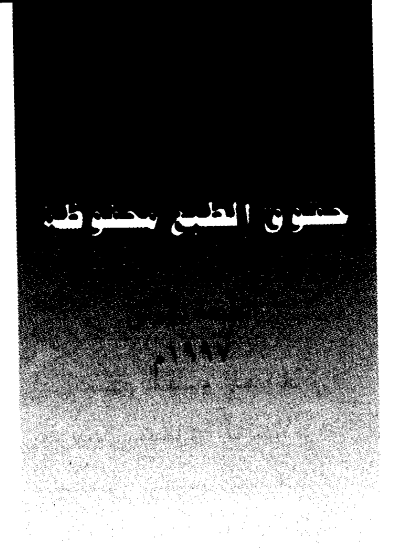
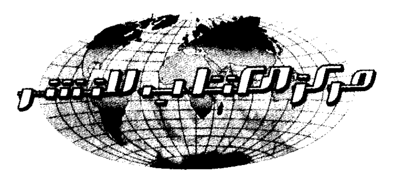
أولو العزم من الرسل

نوح عليه السلام.
إبراهيم عليه السلام.
موسى عليه السلام.
عيسى عليه السلام.
محمد صلى الله عليه وسلم.

تأليف
مأمون غريب

الناسر
مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس-المنطقة السادسة- ت:٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[الأحقاف: ٣٥]



مقدمة

عندما خلق الله الخلق كان لابد أن يدلهم على الطريق السليم الذين يجدون به أنفسهم، ولن يجدوا أنفسهم إلا بمعرفة الله سبحانه وعبادته، لأن الله ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته.. وكل ما فى الوجود يسبح الله ويخضع له، والله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.. ولكى يعرف الناس خالقهم كان لابد من إرسال الرسل والأنبياء.. ومهمة هؤلاء الرسل والأنبياء القيام بتبليغ الناس بما ينبغى أن يعرفوه عن خالقهم جل علاه.. فهو الواحد الأحد.. وهو الصمد.. وهو الغنى عن الولد.. وأن على الناس أن يؤمنوا بوحدانيته.. وهو الذى شرع لهم الحلال، وأمرهم بالابتعاد عن الحرام.. وأوضح لهم ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الناس.

فرسالة الله لعباده إذن واحدة، وهناك على فترات من الزمن جاء الأنبياء والمرسلون لتذكير الناس، وتوضيح الأمور لهم.

فالدين إذن واحد.. جاء به كل الأنبياء والمرسلون.. وكل هؤلاء الأنبياء نادوا بالتوحيد، والإيمان بالبعث واليوم الآخر.. لم يختلف رسول عن رسول فى ذلك، ولكن جاء كل رسول بما يتناسب مع العصر الذى وجد فيه، وجاءت شريعة كل رسالة بما يتفق مع زمان

الرسالة، إلى أن جاءت رسالة الإسلام الخالدة، فجبت ما قبلها لأنها مكملة لكل هذه الرسالات، ومضيفة إليها من التشريعات ما يتلاءم مع زمن الرسالة وما بعدها من أزمنة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هنا نرى أن الإسلام به ثوابت ومتغيرات.

ثوابت تتعلق بالعقيدة، وما بنى عليه الإسلام من الأركان الخمسة.

وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، واقام الصلاة، وإتياء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

وهناك متغيرات باب الاجتهاد فيه مفتوح؛ ليجد فيه كل عصر ما يتلاءم مع ما حدث فيه من تغيرات، وهناك مقاييس وضعها رجال الفكر والفقه الإسلامى للرؤية إلى مستجدات الأمور والحكم عليها، والحكم فى ذلك ما جاء فى كتاب الله، وسنة الرسول، والاجماع والقياس.. والرسالات السماوية الكبرى والتى تعتبر بمثابة المحطات الرئيسية التى وقفت أمامها البشرية فى تاريخها الطويل هى تلك التى جاء بها أولو العزم من الرسل، وقد اتفقت معظم آراء المفسرين على أن أولى العزم من الرسل - الذين جاءوا فى الآية الكريمة ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)**﴾ [الأحقاف: ٣٥] - هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه

الصلاة والسلام.

ومن هنا كانت هذه الرحلة مع هؤلاء الأنبياء الكرام، وقد آثرت أن تكون هذه الدراسة من خلال ما جاء فى القرآن الكريم، لأنه الكتاب الوحيد المعصوم، والذى تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

بعكس ما حدث للكتب السماوية الأخرى، فقد حرّفت، فالتوراة كتبها اليهود بعد نفيهم إلى (بابل) بعد هزيمتهم على يد (بوخذ نصر) (بختنصر) والذى نفاهم إلى بابل، وعلى أرض المنفى كتبوا التوراة حسب أهوائهم، وأضافوا إليها بعض الأساطير التى كانت منتشرة فى بابل وفى مصر، ومن هنا وجدنا التوراة مليئة بالأساطير، وبعض الحكم التى قال بها (إخناتون)! والقرآن الكريم يحذرنا من ذلك فى قول الله تعالى:

﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

والذى يقرأ التوراة سوف يصدمه ما يجده فيها من تناقضات، ومن أمور تتنافى مع العظمة الإلهية وعصمة الأنبياء، فالتوراة وهى تحكى -مثلا - عن خطيئة آدم تقول : إن الله لم يعرف أن آدم قد عصى أمره عندما نهاه عن الأكل من الشجرة المحرمة إلا من الأفعى؟!

وهو جل شأنه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، بل صوروه - جل علاه - يتمشى فى الجنة، ويختبئ منه آدم وحواء بعد أن عصياه بالأكل من الشجرة المحرمة، وكأن الله يتجسد كالبشر ويمشى فى الجنة كالبشر . . !

بينما نرى الله فى القرآن الكريم لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وأن موسى - عليه السلام - عندما كان يناجيه وأراد رؤيته استعصت عليه هذه الرؤية، لأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

ونرى الأنبياء فى التوراة فى صور تتنافى مع جلال هذه الشخصيات فنوح - عليه السلام - يشرب الخمر!

ولوط - عليه السلام - تسكره ابنتاه، حتى يضطجعان معه ليلدن منه الواحدة تلو الأخرى .

وبينما تصور التوراة هذه الصور البشعة، نرى القرآن الكريم يصور الأنبياء بالصورة التى تليق بجهادهم وعظمة شخصياتهم، وتقواهم وحبهم لله.

والقرآن الكريم يصور (لوط) - عليه السلام - فى الكثير من الآيات بما يتفق وجلال النبوة، يقول عنه فى سورة الأنبياء مثلا:

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٤، ٧٥].

والتوراة تنكر قيام إبراهيم - عليه السلام - ببناء أول بيت وضع للناس، فلا تذكر قيامه مع ابنه إسماعيل بإقامة القواعد من البيت.. والهدف واضح، وهو أن الأنبياء من اليهود، ولا ينبغى أن يكون هناك نبى من العرب كإسماعيل ابن خليل الرحمن إبراهيم، رغم أن بناء الكعبة التى بناها الخليل عليه السلام لا علاقة له بالديانة اليهودية.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وإذا كانت التوراة بها الكثير من التحريف، والوضع فيها ظاهر؛ لأن هناك كثيرًا من الأحداث قد دونت فى التوراة بعد زمن موسى -عليه السلام- فإن الأناجيل قد كتبت بعد عيسى - عليه السلام- بمائتى وسبعين عامًا فى قول وفى قول آخر بعد ثلاثمائة عامًا.

وبالتالى امتلأت هذه الأناجيل بأمور لم يأتِ بها عيسى - عليه السلام - ولم يقل بها، من أمور تتنافى مع التوحيد ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: ٧٢].

والخلاصة أن كل أنبياء الله جاءوا بدين التوحيد.. دين الإسلام.. بمعنى إسلام الوجه لله، ولأن القرآن الكريم قد عصمه الله بالحفظ، فقد صور لنا حياة هؤلاء الرسل الكرام ودعواتهم بأسلوبه وبيانه المعجز.. هذه الرسالات التى اكتملت برسالة الإسلام الخالدة، أو ما جاءت به من شريعة هى الحكم العدل بين الناس إلى يوم الدين.

﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾** ﴾ [المائدة: ٤٨].

ونبحر مع هؤلاء الرسل الكرام، الذين حملوا الأمانة، وبلغوا رسالات السماء، واحتملوا ما احتملوا من جهد، حتى تصل رسالات الله إلى خلقه، وحتى يعرف الناس أمور دينهم ودنياهم.. إنها رحلة مع النور الإلهى الذى يهدينا إلى سواء السبيل.. وتظل كلمات الرسول الخالدة نور هداية للبشرية فى كل أجيالها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

«تركت فيكم ما إن تمسَّكْتم به لن تضلوا أبدًا. . كتاب الله وسنتى»
صدق رسول الله ﷺ.

مأمــون غريب

نوح أول رسول بُعث إلى البشر

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾

[سورة نوح: ١ – ٣]

نوح أول رسول بعث إلى البشر

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾

[نوح: ١ - ٣]

عندما يقص القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين، فهو يرسم لنا حياة هؤلاء الرسل، وكيف عانوا ما عانوا فى سبيل تبليغ ما كلفهم به الله عز وجل من رسالة، وكيف ينتصر النور على الظلام، والهدى على الضلال.

كما أن القرآن الكريم وهو يحدثنا عن هؤلاء الأنبياء والمرسلين، يبلغ النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام بما كان عليه الأنبياء من قبله... وأنهم عانوا مثل ما عانى من جحود ونكرانهم أقوامهم، وكيف قاوم هؤلاء كل دعوات الإيمان... ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم غالوا فى العداوة فاعتدوا على الأنبياء والرسل، وهددوهم بالنفى والقتل والتشريد.. ولكن كلمة الله دائمًا هى التى يكون لها النصر فى النهاية مهما تكن صعوبات الطريق.

وكانت كل رسالات الله إلى رسله تدعو إلى التوحيد ونبذ عبادة كل ما دون الله، والتوحيد يقتضى اتباع شرائع هؤلاء الأنبياء التى جاءت من عند الله، بإحلال ما أحلت، وتجنب ما حرمت من أمور.

وكانت دعوة نوح - عليه السلام - هى دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونبذ عبادة الأصنام التى كان يعبدها الناس فى عصره.

وهناك حديث فى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» والقرن المقصود هنا ليس مائة عام، ولكن يُقصَد بالقرن الجيل من الناس. كما فى قوله تعالى:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣١].

وكما فى قوله عليه الصلاة والسلام: «خير القرون قرنى».

* * *

ويقول الإمام ابن كثير: وكان قومه يقال لهم بنى راسب، فيما ذكره ابن جبير وغيره.. واختلفوا فى مقدار سنه يوم بُعث، فقيل كان ابن خمسين سنة، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

ويقول أيضًا:

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه الله وأصحاب السفينة، فى غير موضع من كتابه العزيز، فقد ذكر فى سور: الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات، وأنزل فيه سورة كاملة (سورة نوح).

* * *

ولعل السن الطويلة التى عاشها نوح (ألف عام إلا خمسين) جعلت البعض يتعجب من هذا العمر الطويل الذى عاشه نوح، حتى أننا نرى شاعرنا الفيلسوف أبا العلاء المعرى يقول:

ورووا للمعمرين أمورًا لست أدرى ما هن فى المشهور.

أتراهم فيما تقضّى من الأيام عدوا سنيّهم بالشهور.

كلما لاح للعيون هلال كان عامًا لديهمو فى الدهور.

هكذا تبقى وإلا فإن العقل يثنى فى حالة المبهور.

أى أن شاعرنا الفيلسوف كان يرى أن السابقين فى العصور القديمة جدّا كانوا يحسبون مرور كل شهر قمرى عامًا.

وإذا كان القرآن الكريم يقول إن عمر نوح هو (٩٥٠) سنة، فإن التوراة تقول إن آدم عاش (٩٣٠) سنة!

رسـالة نوح

لقد طال على الناس الأمد، فنسوا رحيق التوحيد الذى جاء به آدم عليه السلام.. وابتعدوا عن الإيمان بالله، واتخذوا من الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله، وما داموا قد ابتعدوا عن الإيمان فلابد أن يسود الفساد، وتبذر بين الناس بذور العداوة والانحلال.. ولا يصبح هناك قانون يحرم الحرام، ويحل الحلال.

لقد دعاهم نوح إلى نور التوحيد فصموا آذانهم.. وضح لهم طريق الهداية فأداروا له ظهورهم.. جاءتهم كلماته الهادية:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ردد عليهم تعاليم السماء:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٠ - ٢٠].

دعوة إلى التفكير.. دعوة إلى الناس ليتدبروا الكون الذى يعيشون فيه وما فيه من مفاهيم الوجود، وما فيه من مقومات حياتهم.. خلق الله الشمس تنير لهم طريق الحياة، والقمر يضىء لهم ظلام الليل، ويعرفون من خلاله عدد السنين والشهور... وخلق لهم الهواء الذى يتنفسونه، والماء الذى منه كل شىء حى، والأرض التى تخرج لهم من النباتات رزقًا لهم، والحيوانات التى يستأنسون بعضها ويأكلون بعضها الآخر!

ولكن القوم لم يعد عندهم رغبة فى التفكير. لقد استسهلوا ما وجدوا عليه الآباء والأجداد، وزادت سخريتهم لنوح عليه السلام، الذى قال لهم:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وكلما دعاهم نوح - عليه السلام - زادت سخريتهم منه، وظلوا عاكفين على عبادة هذه الأصنام التى أطلقوا أسماء: يغوث، وسواع، ويعوق، ونسرا.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ [نوح: ٢٣].

وقد فسر ابن عباس هذه الآية: هذه أسماء رجال صالحين من قوم

نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبِدَت!

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثانُ التى كانت فى قوم نوح فى العرب فيما بعد.

* * *

ونمضى مع أحداث سيرة نوح عليه السلام.. فنرى أن قومه استخفوا به وبدعوته، واتهموه بالضلال.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١)﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١].

وطال الجدل.. وطال النقاش.. إنهم يماطلون ويهددون ويتوعدون، وهو يذكرهم بأنهم لو لم ينصاعوا لأمر الله فسوف يأتيهم عذاب مقيم، وقالوا له:

﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣)﴾ [هود: ٣٢، ٣٣].

* * *

وأوحى الله إلى نبيه أن يبنى سفينة، حتى يمكنه أن ينجو من

الطوفان هو ومن اتبعه من المؤمنين. هذا الطوفان الذى سوف ينهى حياة هؤلاء الكافرين، ويعيد للحياة رونقها، وتشرق الأرض بأنوار الإيمان... فهؤلاء المنكرون للرسالة لم يعد يجدى فيهم وعظ ولا وعد ولا وعيد، وإنه آن الآوان لهلاكهم... وإن الذين آمنوا به هم الذين سوف يعمرون الأرض، وإن الأخوة التى تربط بين قلوبهم.. أخوة الإيمان.. أقوى عند الله من قرابة الرحم، فقد هلك فيمن هلك ابن نوح نفسه، الذى كفر بدعوة أبيه!

وعندما أخذ نوح فى صنع السفينة كان قومه يسخرون منه ومن وعيده:

﴿إن تَسْخَرُوا منَّا فإنَّا نَسْخَرُ منكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وكان يقول لهم:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

وقال لهم وهو يرد على ضحكاتهم المستهترة:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود: ٣٩].

وجاء أمر الله، وركب السفينة أنصار نوح عليه السلام، وحملوا معهم من كل زوجين اثنين.. ونادى نوح ابنه أن يركب السفينة حتى

ينجو، ولكنه رفض:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

لقد حدث الطوفان العارم.. بعد أن دعا نوح ربه بهذا الدعاء:

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وتتكاثر السحب فى السماء.. وتغيب الشمس وراء هذه الحجب الكثيفة من السحب.. ويعم الظلام.. وترتجف القلوب وهم يرون مشهدًا لم يشهدوا مثله من قبل، وتزمجر الرياح، ويشتد الهول والعيون تنظر إلى السماء المتجهمة، وقبل أن تتساقط الأمطار الغزيرة لتغمر الكون فى مشهد لم تعرفه الإنسانية من قبل، كانت الأرض تتفجر هى الأخرى بالمياه... وترتفع السفينة شيئًا.. فشيئًا.. بينما الناس فى ذعر يجرون هنا وهناك يلتمسون قمم الجبال، ووسط هذا الهول يرى نبى الله نوح ابنه ويناديه:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢].

ويجيبه الابن:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

يقول له نوح:

﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣].

ولا يجد نوح إلا الله فى هذه الساعات الصعبة يلجأ إليه وقد أحس بعاطفة الأبوة:

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٢ – ٤٥].

ويوحى إليه العزيز الجبار:

﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥ – ٤٨].

وهنا يشعر نوح أن عدل الله لا يفرق بين ابن نبى وابن أى إنسان آخر.. لقد آن الأوان ليسود العدل الإلهى... ويشعر نوح بالخوف الشديد من ربه... إنه فى هذه اللحظات الحاسمة والمصيرية لا يريد أن يغضب الله عز وجل فيتوجه إليه بقلب خاشع:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود: ٤٧]

ورنت نظرة من نوح إلى الطوفان الذى يقتلع أمامه كل شىء.. والأمواج التى تغرق الجميع.. والتى ابتلعت ابنه فيما ابتلعت... ولا يرى أمامه إلا الأمواج الكاسحة التى ترعد وتبرق وتنزل أمطارها الغزيرة التى لا يتصورها عقل أو خيال.

ويجىء الأمر الإلهى بعد أن أدى الطوفان مهمته.. ولا أحد يعرف كم مكث هذا الطوفان قبل أن تنقشع السحب.. وتشرق الشمس... وتتوقف المياه وتنحسر... وترسو السفينة على جبل الجودى... ويصور القرآن الكريم هذا المشهد فى كلمات قليلة موحية ومعبرة:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ [هود: ٤٤].

وينظر نوح إلى الموجودات من حوله.. فلا يجد إلا الصمت.. وقد خلت الحياة من هؤلاء الذين رفضوا الإذعان لأمر الله.. وأبوا الإيمان!

* * *

يقول الشيخ محمود شلتوت وهو يفسر سورة نوح:

(قوبل النبى ﷺ منذ أن دعا إلى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الإنكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الأمم الخالية جزاء الإنكار والتكذيب).

وفى هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم إلى مثل دعوته. وقوبل منهم بمثل ما قوبل به، تثبيتًا له على دعوته، وتسلية له فيما يصيبه، وتهديدًا لقومه إن استمروا على العناد

والاستهزاء بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد.

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام، هى رابطة البنوة، ففى التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كانوا فيه من النقمة التى أخذت المكذبين، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التى أنقذ بها نوح، ومن آمن معه، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجود، وتكونوا شعوبًا وقبائل وانتشروا فى الأرض، وإلى هذا تشير آية الحاقة:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١].

وقد تكررت فى القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية للرسول، وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام.

ويقول عن دعوة نوح وأصولها والأمور التى عنيت بها: إنها ترتكز على أصول ثلاثة:

* عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام.

* تقوى الله باجتناب المعاصى التى تفسد الأخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات.

* إطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه.

وهذه الأسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده، وهى

مصاعد الحياة الطيبة، تعلو الأمم إذا تمسكت بها، وتسقط إذا انحرفت عنها.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ١ – ٤].

وبعد أن يحدثنا عن فوائد الدعوة، وسبلها، وما صادفها من عناد وإعراض، وعاقبة هؤلاء المكذبين يقول: فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح، قصها الله على كفار مكة وعلى جميع الناس، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان ومكان. وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من أصل الطبيعة وإنما هو من خداع المستكبرين الماكرين، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لا بد أن يعلو صوته وينتشر فى العالم ضوؤه، ويعم الكون خيره.

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك، وسار على سنتك فى الدعوة إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

وإذا تحدثنا عن نوح عليه السلام نفسه، وكيف كان صومه وعبادته، نرى أن الإمام ابن كثير فى قصص الأنبياء يروى الكثير عن أول الأنبياء المرسلين، ويروى عنه بعض أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها قوله: «صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر وعيد الأضحى».

ويروى حديثًا آخر يقول فيه الرسول ﷺ: « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر ويوم الأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر».

ويروى عنه أيضًا وصية نوح لابنه كما ورد ذلك عن رسول ﷺ فى قوله:

«إن نبى الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاصّ عليك وصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة رجحت بهم لا إله إلا الله. ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتين لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شىء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر».

قال: قلت - أو قيل - يا رسول الله: هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال: «لا».

قلت ـ أو قيل ـ يا رسول الله: فما الكبر؟

قال «سفه الحق وغمط الناس».

ويقول الإمام ابن كثير أيضًا:

ويزعم أهل الكتاب أن نوحًا عليه السلام ـ لما ركب السفينة ـ كان عمره ستمائة سنة، وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، وفى هذا القول نظر، ثم إن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض، فإن القرآن يقتضى أن نوحًا مكث فى قومه بعد السفينة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون.. ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك.

ويقول ابن كثير أيضًا:

فإن كان ما ذكر محفوظًا عن ابن عباس من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكن قد عاش على هذا ألفًا وسبعمائة وثمانين سنة، ويرجح ابن كثير أنه دفن بالمسجد الحرام على عكس ما ذكره الآخرون، والله أعلم.

* * *

ولا شك أن قصة الطوفان قد دخلها الكثير من الأساطير والإسرائيليات.. فقد تحدث البعض كثيرًا عن طول السفينة وعرضها، وكيف وضعت فيها الحيوانات والطيور من كل زوجين اثنين لتكون هذه الكائنات نقطة انطلاق للحياة الجديدة على الأرض بعد الطوفان.

ولا أحد يعرف بالضبط كم كان عدد الناجين من قوم نوح، وإن كان الألوسى فى تفسيره يرى أنهم كانوا تسعة وسبعين: زوجته وبنوه الثلاثة ونساؤهم واثنان وسبعون رجلا من غيرهم.

وقصة نوح - عليه السلام - ترينا كيف صبر الرجل وصابر فى سبيل دعوة قومه إلى التوحيد الخالص وعبادة الله وحده، وأنه لم تلن له قناة وهو يدعو هؤلاء الذين عاش بينهم فلم يجد منهم إلا الازدراء والاستهزاء.. كما ترينا هذه القصة أن الله سبحانه وتعالى يقص على رسوله عليه الصلاة والسلام القصص السابقة فى العهود الغابرة حتى يواصل دعوته موقنًا بأن النصر فى النهاية للإيمان والمؤمنين.

وللدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى جمهورية مصر العربية رؤية لهذه القصة.. أوردها فى تفسيره (التفسير الوسيط للقرآن الكريم) وهو أن القرآن الكريم فى إبرازه للقصص والأخبار لا يهتم إلا بإبراز النافع المفيد منها، أما ما عدا ذلك مما لا فائدة من ذكره فيهمل القرآن الحديث عنه.

فمثلاً فى قصة نوح عليه السلام لم يتعرض القرآن لبيان المدة التى

قضاها نوح فى صنع السفينة، ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها، ولا لتفاصيل الأنواع التى حملها معه فى السفينة، ولا لبيان الفترة التى عاشها نوح ومن معه فيها. . ولا لبيان المكان الذى هبط فيه نوح بعد أن استوت على الجودى. . ولا لبيان الزمان الذى استغرقه الطوفان فوق الأرض. . وما ورد فى ذلك من أقوال وأخبار فأكثرها من الإسرائيليات التى لا يؤيدها دليل من الشرع أو العقل.

ومن المسائل التى تكلم عنها كثير من العلماء، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى مسألة الطوفان.

وقد أصدر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ فتوى فى هذا الشأن، ملخصها كما يقول صاحب المنار: إن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عامًا شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده، ولكنه لا يقتضى أن يكون عامًا للأرض، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض. وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن، ولذلك لم يبينها بنص قطعى، فنحن نقول بما تقدم أنه ظاهر النصوص، ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية، فإن أثبت العلم خلافه لا يضرنا، لأنه لا ينقض نصًا قطعيًا عندنا.

ويقول الدكتور سيد طنطاوى أيضًا:

إن سنة الله تعالى فى خلقه لا تتخلف ولا تتبدل وهى أن العاقبة

للمتقين، مهما يطل الصراع بين الحق والباطل، وبين الأخيار والأشرار.

فلقد لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقد لقى خلال تلك المدة الطويلة ما لاقى من الأذى. ولكن كانت النتيجة فى النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين، وإغراق أعدائه بالطوفان العظيم.

ولقد أفاض صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن هذا المعنى فقال ما ملخصه:

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح، لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله سبحانه.

إن حفنة المسلمين من أتباع نوح عليه السلام تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر، وهم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عامًا.

إن هذه الحفنة ـ وهى ثمرة العمل الطويل والجهد الطويل ـ وقد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شىء. وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها.

وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم.. إنه لا ينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى

قوة إفراد الله ـ سبحانه ـ بالعبودية.. كما أنه لا ينبغى له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوة عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه. ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة، وإن الجاهلية تملك قواها، ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله، والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية ـ حينما يشاء وكيفما يشاء ـ وأيسر هذه القوى أن يدمر الجاهلية من حيث لا يحتسب أحد!

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً، ثم يتركوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة، وعندما يُغلَبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين، وأن يجأروا إليه وحده كما جأر عبده الصالح نوح عليه السلام.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠].

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب، وانتظار الفرج من الله عبادة، فهم على هذا الانتظار مأجورون.. والعافية للمتقين.

***



أبـو الأنبيـاء

إبراهـيم الخـليل

المهـاجر دومـًا إلـى الله



أبو الأنبياء إبراهيم الخليل

مضت سنوات على رسالة نوح عليه السلام. ونسى الناس رحيق السماء.. نسوا رسالة التوحيد التى جاء بها نبى الله نوح.. وبدأوا يعبدون أصنامًا لا تنفع ولا تضر، وبعضهم أخذ فى عبادة الكواكب والنجوم ظنًا منهم أن تلك العبادات تقربهم إلى الله زلفى!

وفى أرض (بابل) ولد إبراهيم. وهاله أن يرى الناس قد أضلتهم أهواؤهم، وقدسوا أشياء لا تنفع ولا تضر.. وهدته فطرته السليمة إلى أن القوم قد بعدوا عن المنطق والصواب، فضلوا وأضلوا!

وأدهشه أن والده (آزر) قد ارتفعت مكانته بين الناس؛ لأنه يقوم بصناعة هذه الأصنام التى يعكف القوم على عبادتها.

لقد فكر إبراهيم طويلاً عاملاً فكره - قبل أن يأتيه وحى السماء - فيما يقدسه الناس.. إنهم كانوا يعبدون القمر والنجوم والشمس.. ولكن القمر يأفل.. والنجوم تختفى، والشمس يعتريها الغروب.. إنها أجرام يعتريها النقصان فلا يمكن أن تكون آلهة. وأسوأ من كل ذلك أن يعبدوا أصنامًا يصنعونها بأيديهم ويخرون لها ساجدين!

وأقنعته فطرته السليمة أن وراء هذا الكون خالقًا عظيمًا، ينظم أموره، ويعرف كل أسرار خلقه.

وكان عليه أن يواجه قومه.. وأعلن أمامهم بعد أن حاول أن يقنعهم بعبث ما يعتقدون: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

وعندما رأى الجزع على وجوههم وهو يسفه عقولهم ويلعن آلهتهم، أوضح لهم حقائق الأمور:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٨١].

وكان من الطبيعى أن تصل سخريته بآلهتهم المزعومة إلى مسامع الناس. وأن تصل أيضا إلى مسامع ملكهم (النمروذ) الذى كان يعتبر نفسه إلهًا.

وكان عليه أن يواجه الناس.. يواجه الملك. ويواجه أباه.. وكان بحكم النبوة يتمنى أن يدخل أبوه فى عداد المؤمنين.

قال لأبيه:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥].

ولكن الأب بدلا من أن يثوب إلى رشده، ويفكر فى كلمات ابنه البار، عدّ ذلك تطاولا عليه، وتمسك بشركه، وهدد ابنه بالطرد والعقاب.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم: ٤٦].

ووجد خليل الرحمن أن عليه أن يقوم بعمل يهز هذا المجتمع المشرك من الأعماق، ويجعله أمام واقع جديد.. لا بد أن يشعرهم أن هذه الأصنام التى يقدمون لها القرابين لا تستطيع حتى الدفاع عن نفسها!

لقد تسلل إلى المعبد الذى يمتلئ بالأصنام.. وحطم هذه الأصنام، ووضع معوله فى رقبة الصنم الأكبر.. وكان من الطبيعى أن يثور الناس من هذا الذى سخر من آلهتهم، وكان من الطبيعى أن تشير أصابع الاتهام إلى إبراهيم الذى طالما سخر من عبادة الأصنام.. سألوه:

﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢].

أجابهم إجابة فيها السخرية بعقولهم ومعتقداتهم:

- بل فعله كبيرهم هذا.. فاسألوهم إن كانوا ينطقون!

ويصور لنا القرآن الكريم هذه الأحداث فى لوحة بيانية بالغة

التعبير، وفى كلمات بالغة المنطق والروعة.. بإعجازه العظيم: يقول الله - تعالى - فى سورة الأنبياء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) ﴾ [الأنبياء: ٥٠ - ٦٨].

لقد خرست ألسنتهم، ولم يعد فى إمكانهم إقناع إبراهيم بمعتقداتهم، ولم يستطيعوا فى الوقت نفسه أن يقتنعوا بدعوة خليل الرحمن، وأرادوا أن يكون عبرة لمن يتطاول على عباداتهم

ومعتقداتهم، وقرروا التخلص منه حرقًا بالنار.. ولكنهم ذهلوا عندما ألقوا به فى أتون النار المشتعل.. وعندما خمدت النار وجدوا إبراهيم كما هو.. لم تمسه النار بأى سوء.. لقد حدثت المعجزة الإلهية بالأمر الإلهى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ويأمر الملك (النمروذ) أن يمثل الخليل بين يديه.. بكل ثبات الأنبياء يرد الخليل على الطاغية بالمنطق والحجة.. إنه يدعو إلى الإيمان بالله الواحد.. خالق كل شىء.. وهو الذى يحيى ويميت.. وإليه يرجع مصير كل الكائنات.

ولكن الملك بعناد الطغاة يخبره أنه هو الآخر يحيى ويميت. إن باستطاعته أن يأمر بقتل برىء.. وفى الوقت نفسه يمكنه أن يأمر بالعفو عن إنسان محكوم عليه بالموت.. وبالتالى فهو يحيى ويميت.

ولكن الخليل يلهمه ربه أن يقول للطاغية أن الله سبحانه وتعالى يأتى بالشمس من المشرق، وعليه إن كان إلهًا أن يجعلها تأتى من المغرب، ويخرق بذلك نواميس الكون التى خلقها الله جل علاه.. وهنا بهت الملك الكافر على حد تعبير القرآن الكريم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقرر الخليل إبراهيم أن يترك هذه البلاد التى يعشش فيها الجهل والكفر.. إن الناس رغم رؤيتهم معجزة نجاة إبراهيم ظلوا فى جهلهم يعمهون.. ولم يؤمن به إلا (سارة) التى أصبحت زوجته فيما بعد، بعد أن هاجرت معه ومعهم ابن أخيه لوط. وقرر الهجرة إلى الله.

واستقر به المقام فى مدينة (حران) التى أخذ يدعو فيها إلى الإيمان بالله، ونبذ عبادة ما دونه من أصنام وأوثان وكواكب ونجوم، ولكن صيحاته ذهبت أدراج الرياح كما حدث فى بابل.. والناس هم الناس.. والعقول هى العقول.. والقلوب الصلدة هى القلوب الصلدة الصماء نفسها !

ومرت أعوام لا يعلمها إلا الله.. وإبراهيم يدعو الناس، والناس فى وادٍ آخر.. إلى أن حدث جدب فى (حران) اكتسح كل شىء فى أرض فلسطين، وقرر الخليل أن يهاجر مع زوجته إلى مصر، حيث الخصب والنماء، وكانت مصر فى هذه الأثناء تقع تحت استعمار الهكسوس!

وأقام إبراهيم فى أرض مصر هو وزوجته سارة وابن أخيه لوط.. وقد أهدى حاكم مصر إليه هاجر.

كان خليل الرحمن قد تقدمت به السن، وتسلل الشيب إلى شعره، وكانت سارة عقيمًا لا تلد!

وذات يوم جاء مبعوث الملك إليه يطلب منه العودة إلى فلسطين

بعد أن زال عنها خطر الجفاف، وأخذ خليل الرحمن أهله ليعود من جديد إلى حران إلا أنه فضل أن يعيش فى بقعة قريبة من (بئر سبع)، وفى هذا المكان الذى قرر أن يعيش فيه.. تذكر طفولته.. وتذكر والده الذى تركه فى بابل.. وتذكر دعوته إلى الله التى لم يستجب لها إلا عدد ضئيل من الناس.. استقر به المقام فى هذه البقعة من الأرض.. ورأت سارة أحزان إبراهيم الخليل وكثرة تفكيره.. وأرادت أن يرزقه الله ولدا يملأ عليه حياته، فاقترحت عليه أن يتزوج هاجر المصرية.. وعندما حملت هاجر.. وأنجبت إسماعيل شعرت سارة بالغيرة منها فطلبت من الخليل أن يذهب بها إلى مكان آخر.

إن القدر يهيئ الأمور لمرحلة جديدة؛ لتمتد الدعوة إلى آفاق جديدة..وأماكن جديدة.. سيكون من نتائجها الدعوة الخاتمة التى ستكون خاتمة الدعوات بميلاد آخر رسل الله من نسل إسماعيل ابن خليل الرحمن.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة: ١٣٠].

لقد ألهمه الله أن يلجأ بأهله إلى مكان مهجور عند بيت الله الحرام!

وعندما ذهب بهاجر وابنه إسماعيل إلى تلك الأماكن المهجورة سألته زوجته: أأمرك الله بذلك؟

وعندما أجاب بالإيجاب اطمأن قلبها وقالت:

ـ إذن لن يضيعنا الله!

وفى هذا المكان القفر الذى لا يوجد به ماء ولا زرع.. حيث الصحراء والجبال.. كان عليها أن تجد ما يروى ظمأ ابنها وظمأها.. وأخذت تهرول بين (الصفا) و (المروة) لعلها تجد بعضًا من الماء، بينما تركت طفلها بالقرب منها وهى تسعى وتجد فى البحث.. وعندما أعياها التعب والجهد فوجئت بتدخل السماء.. لقد انبثق الماء من تحت قدمى الصغير (بئر زمزم).. وسرعان ما جاءت الطيور حول هذا النبع من الماء، وشاهدت قبيلة (جُرهم) تدفق الطيور فى السماء؛ فعلمت أن بالقرب منهم نبعا من الماء.. وهكذا انتقلت هذه القبيلة إلى هذا المكان القريب من بيت الله الحرام الذى كان قد بناه آدم عليه السلام، ثم جرفته السيول.. وهكذا أرسل الله إلى هاجر ووليدها من يزيل عنهم جفوة الغربة والوحدة. لقد استجاب الله دعاء خليله:

﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)** ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

كان قلب خليل الرحمن يهفو إلى مكان ابنه إسماعيل وزوجته هاجر بجانب انشغاله بأمر الدعوة.. إلى أن رأى رؤيا فى منامه بأن يذبح ابنه إسماعيل! قام الرجل يفكر فى هذه الرؤيا.. فرؤيا الأنبياء

لا يتدخل فيها الشيطان.. إنه إذن أمر إلهى وما عليه إلا أن يعبر الصحراء، ويتجه صوب البيت الحرام.. ويحقق ما رآه فى المنام.. أن يذبح فلذة كبده ووحيده إسماعيل.

إنه امتحان عسير لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرسل.. لقد اشتاقت نفسه طويلا إلى الولد الذى يملأ عليه الحياة.. وعندما جاء الولد.. كان عليه أن يفارقه ويذهب به إلى بلاد بعيدة.. ويُحرَم الولد من حنان الأبوة.. ثم ها هو الآن يزداد الامتحان فيؤمر بذبح وحيده!

يأخذ خليل الرحمن فى طى هذ المسافات البعيدة بين فلسطين والحجاز.. وعندما يصل إلى حيث زوجته وولده.. يرى إسماعيل وقد أصبح طفلا وديعًا جميلا.. ذكيا ورث عن أبيه الفطنة وحدّة الذكاء ونقاء السريرة.

وقص الأب على الابن رؤياه. قال:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

بلا تردد أجاب الابن وهو يمتثل لقضاء ربه:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أى موقف هذا الذى نراه فى هذا المشهد التاريخى الخالد.. أب

يقوم على ذبح أحب إنسان إلى قلبه امتثالا لأوامر ربه، وإسلامًا وتسليمًا بقضائه. .وابن فى عمر الزهور يرى فى أوامر الله أشياء لا تناقش فيذهب مع أبيه طائعًا مختارًا. . لايعتريه خوف ولا يهزه ما هو صائر إليه. . مشهد لا يستطيع قلم أن يصوره، ولكن الله عز وجل صوره فى كتابه العزيز تصويرا بالغ الجمال والعذوبة، بعد أن فدى الابن بذبح عظيم:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١١١].

وتمضى الأيام. . ويشعر خليل الرحمن أنه أصبح شيخًا كبيرًا ويتذكر ابن أخيه لوط. .وما يلقاه من قومه الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء. . وظل لوط ينصحهم أن يعودوا إلى الطهر والطهارة، ويسلكوا الطريق المستقيم، ولكن قومه أبوا عليه دعوته، وتمادوا فى غيهم وضلالهم. . وكان مما يزيد فى عذاب لوط عليه السلام زوجته التى كانت لا تصدق برسالته!

وبينما كان خليل الرحمن يفكر فى كل ذلك إذ وجد ثلاثة من الرجال يقدمون عليه. . ليس عليهم مظاهر السفر وما ينتج عنه من تعب ونصب وأتربة الطريق. . وعندما أراد أن يكرمهم ويستضيفهم

وقدم لهم الطعام لم يقدموا أيديهم إلى الطعام.. زادت دهشته وحيرته وتناوبته المخاوف.. من يكونون هؤلاء الضيوف الغرباء؟

وشعروا هم بالموقف الذى لا يُحسَد عليه نبى الله الخليل، فأخبروه أنهم رسل الله.. وأنهم متوجهون إلى لوط.. وقبل مغادرتهم له بشروه بأنه سوف ينجب ابنًا (إسحاق) من سارة!

وزادت دهشة الخليل.. كما زادت دهشة سارة.. كيف تلد وقد بلغت من العمر ما بلغت.. وإبراهيم شيخ كبير.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

ويحدثنا الإمام ابن كثير فى تفسيره أنه لما ذهب الروع عن إبراهيم وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير فى الآية قال: لما جاء جبريل ومن معه قالوا له: إنا مهلكو أهل هذه القرية.

قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟

قالوا: لا.

قال: ثلاثون؟

قالوا: لا. حتى بلغ خمسة قالوا لا؟

قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟

قالوا: لا.

فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿**إِنَّ فِيهَا لُوطًا**﴾ [العنكبوت: ٣٢].

قالوا: ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ**﴾ [العنكبوت: ٣٢] فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وتوجهت الملائكة حيث يوجد لوط.. اتجهوا إلى (سدوم) وكانت ابنة لوط تملأ جرتها من ماء النهر عندما تناهى إلى سمعها من يسألها عن بيت يبيتون فيه!

التفتت إليهم. رأت ثلاثة من الشباب البالغ الحسن والوسامة.. طلبت منهم أن يظلوا فى مكانهم حتى تخبر أباها.. وعندما سمع لوط بذلك شعر بالضيق والحرج.. إنه يوم عصيب بالنسبة إليه.. فقومه لن يتركوهم وسيكون هو فى غاية الحرج.. كيف يحميهم من هؤلاء القوم الذين لا يريدون أن يطهروا ولا يريدون الفضيلة.. وقد شاع فيهم الشذوذ!

لقد ذهب لوط إليهم..وعندما رآهم فى حسنهم شعر أنه فى موقف صعب.. وأخذهم إلى داره.. وما كادت زوجته تراهم حتى انطلقت تخبر قومها بأمرهم.

وجاءوا يتدفقون على منزل نبى الله.. وأحس هو بالحيرة وعرض عليهم أن يذهبوا إلى نسائهم.. فذلك أطهر لهم، ولكنهم أصروا على موقفهم.. ويصور القرآن الكريم ذلك بأسلوبه المعجز:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [هود: ٧٧ - ٧٩].

ويقول الإمام ابن كثير فى تفسيره (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم).

قال مجاهد: لم يكن بناته ولكن كُنَّ من أُمَّته وكل نبى أبو أُمَّته.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحًا.

وقال سعيد بن جبير: يعنى نساءهم هن بناته وهو نبيهم.

وفسر ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي**﴾ [هود: ٧٨] أى اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿**أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ**﴾ [هود: ٧٨].

واطمأن نبى الله لوط عندما عرف من هؤلاء الضيوف أنهم رسل الله.. وأن القرية سوف تلقى العذاب، وأمروه أن يخرج ليلا من هذه القرية فسوف ينجو هو وأهله عدا زوجته.

﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾**﴾ [هود: ٨١]

وتحقق وعد الله: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾**﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

هزت الفرحة أعماق خليل الرحمن على نجاة ابن أخيه لوط، وهلاك المجرمين!

وعندما جاش الحنين بقلب النبى إلى رؤية ابنه إسماعيل توجه إلى ابنه فى بلده البعيد.. إنه فى طريقه لإعادة بناء القواعد من البيت..

وإقامة هذا البيت الذى سيصبح مثابة للناس وأمنًا.

كان إسماعيل قد وصل إلى مرحلة الشباب.. يتحدث العربية بطلاقة.. ويركب الخيل.. وكان قد تزوج للمرة الثانية من قبيلة جرهم التى جاورته وأنست وحدته.. ويقول الرواة إنه كان قد تزوج من قبل فتاة لم يرتح لها خليل الرحمن.. عندما كانت تشكو من الفقر فطلب منه الخليل تطليقها فتزوج الثانية!

وقصة زواج إسماعيل تحدث فيها الرواة كثيرًا.. وفيها أقوال كثيرة.. فقد قال البعض إنه ليس من المعقول أن يقطع خليل الرحمن المسافة من الشام إلى مكة.. ثم يرجع دون أن يرى ابنه.. بل يرى زوجته التى اشتكت له الحال.. فقال لها: قولى لزوجك عندما يعود أن يغير عتبة الباب! ففهم إسماعيل أن الشيخ القادم كان أباه، وأنه يأمره أن يغير زوجته! ومهما يكن من شىء فلن نقف طويلا عند حكايات الرواة.. بل نقف عند هذا الحدث المهم وهو بناء الكعبة المشرفة.. فى بيت الله الحرم.. لتكون مكان الأمن والأمان، ويحج الناس إليها من كل فج عميق، وتصبح فيما بعد قبلة نبى الإسلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وإليها يحج المسلمون، ويصبح هذا الحج فريضة على كل قادر من المسلمين من ذكر أو أنثى فى العمر مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ

وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٥ – ١٢٨].

ونختار من تفسير ابن كثير قوله:

وتقدير الكلام إذًا : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ . . أى طهراه من الشرك والريب. وابنياه خالصًا لله معقلا للطائفين والركع السجود. . وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية ومن قوله تعالى:

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦].

وقد وردت أحاديث تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض. . مثل قوله عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة:

«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبل ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا

يعضد ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها».

قال العباس: يا رسول الله: الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم.

فقال: إلا الإذخر.. (الإذخر: حشيش طيب الريح) [وهذا لفظ سليم].

* * *

لقد أقام خليل الرحمن وابنه إسماعيل القواعد من البيت ليكون ملاذا للناس.. وقبلة للمسلمين فيما بعد.. وكان عند بنائه يرفع عينيه إلى السماء ويدعو لنفسه ولابنه ولأمته:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾

وقد قال الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومعنى هذا أن دعوته شاملة.. دعوة لجميع الناس.. أن يلتزموا بوحدانية الله.. وأن ينبذوا كل شيء عداه؛ لأنه مبدع كل شيء.. وإليه مصير كل شيء.. وإن الإيمان بالله يقتضى عمل الفضائل والابتعاد عن الرذائل.

وفى هذه البقعة الطاهرة التى أقيم فيها بيت الله الحرام نفسها.. دعا خليل الرحمن أن يبعث فى هذه البقاع النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام والذى ستكون شريعته وتعاليم دينه للناس كافة من كل

الألوان والشعوب والأجناس.. والذى سوف تختم به رسالات السماء:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

إنها الدعوة الطاهرة للرسول الطاهر. قالها الخليل إبراهيم.. واستجاب له الله عز وجل.. أو بمعنى أدق أفصح عنها إبراهيم الخليل.

ويروى الإمام ابن كثير فى تفسيره أن الرسول العظيم سئل:

ـ ما كان بدء أمرك؟

قال: دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى بى، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام.

والمراد أن أول من نوَّه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره فى الناس مشهورًا سائرًا، حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسبًا وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام فى بنى إسرائيل خطيبًا وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ولهذا قال هذا الحديث: دعوة إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم.

كليم الله
موسى عليه السلام



كليم الله موسى عليه السلام

إن كتابة قصة موسى عليه السلام تحتاج إلى عشرات المجلدات، حتى نلم بكل أحداثها وما جاءت به من شريعة، ولكن يلاحظ فيما كتبه بعض هؤلاء المفسرين أن فيه الكثير من البعد عن المنطق والعقل، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنهم لجئوا إلى الإسرائيليات وهم يكتبون قصة موسى عليه السلام.

ومن هنا فإن الوقوف عند حقائق هذه القصة يدعونا إلى التوقف عندما ذكره القرآن الكريم. رغم أن القرآن الكريم لا يتوقف عند التفاصيل.. إلا أن ما جاء فى القرآن الكريم فى مختلف السور يضعنا أمام القصة المتكاملة لكليم الله.. ونعرف أسرار هذه الدعوة.. وما جاءت به من هدى، وما ترسمه من نور يهدى الحائرين.. وهو هدف كل الرسالات السماوية نفسه.. لأن الهدف منها جميعًا واحد.. وهو الدعوة إلى التوحيد.. وعدم الشرك بالله .. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. والإيمان بالبعث الذى يُنصَب فيه ميزان العدل.. ليجازى كل إنسان بما قدمت يداه..

القرآن الكريم لا يحدثنا بتفاصيل القصة.. ولكنه يركز على الأحداث المهمة.. ومن خلال هذه الخيوط تتضح لنا معالم الصورة.

نحن نعرف أن فرعون كان قد أصدر أمرًا بأن يُقتَل كل طفل يولد فى بنى إسرائيل.. وهم نسل الذين جاءوا إلى مصر فى عهد يوسف الصديق.. ظناً منه كما أنبأه الكهان أنه سوف يولد منهم من سيقضى على ملكه! وفى هذا الجو المسعور وُلد موسى، الذى كان قد سبقه إلى الحياة بعام أخوه هارون.. وأوحى الله إلى أم موسى أن ترضعه وتضعه فى صندوق وتلقى به فى اليم.. وإذا بتيار النيل يقذف به إلى الشاطئ بجانب قصر الفرعون، وتراه زوجته التى تشعر بالحنين الجارف نحو هذا الطفل وتقرر أن تتخذه ولدًا.. وهكذا قُدِّر لهذا الرضيع أن يعيش فى قصر الفرعون نفسه!

وتمضى الأيام.. ويشب موسى عليه السلام.. وعندما يجد واحدًا من شيعته يقاتل أحد المصريين فيقتله المصرى عندما وكزه فقضى عليه. وكان عليه أن يهرب من مصر كلها خوفًا من انتقام فرعون!

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص: ١٥ – ١٧].

ونرى القرآن الكريم لا يهتم بتفاصيل الأحداث.. إنما يقف عند الأحداث الكبيرة التى كان لها تأثير فى حياة موسى والرسالة.. فما

يكاد موسى يعرف أن القوم يأتمرون به ليقتلوه، حتى قرر ترك مصر كلها.. تقوده قدماه حيث يشاء الله.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

ويتوجه موسى عليه السلام إلى (مدين).. حيث يأوى إلى الظل طلبًا للراحة بالقرب من بئر يسقى منه الناس، ويرى فتاتين يمنعهما الحياء أن تزاحما الناس، فيملأ لهما وعاءهما وتعودان مبكرتين على غير العادة، ويقصان على والدهما ما فعله موسى من أجلهما فيستضيفه شعيب، ثم يقرر أن يزوجه إحدى هاتين البنتين على أن يخدمه ثمانى أو عشر سنوات، وعندم يتم الأجل، يقرر العودة بأهله إلى مصر.

وما كان موسى عليه السلام يدرى أنه سوف يُبعَث رسولا وهو فى طريق العودة.. يقص علينا القرآن الكريم ذلك بقوله:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ

نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴿١٦﴾ ﴾ [طه: ٩ – ١٦].

وبدأت أعباء الرسالة.. وعليه أن يذهب إلى فرعون يدعوه إلى الوحدانية.. ومعه برهانان أعطاهما الله تعالى له حتى يؤمن فرعون بالدعوة:

أن يلقى بعصاه فإذا هى حيه تسعى. وأن يضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، وهناك أكثر من آية فى أكثر من سورة من القرآن الكريم تتحدث عن تكليف موسى بالرسالة ووضع حد لعذابات بنى إسرائيل فى مصر. وإن الله يدعمه فى دعواه يقول تعالى فى سورة القصص:

﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص: ٣٠ – ٣٥].

عندما نقرأ هذه القصة فى كتاب الله فى سوره المختلفة نلاحظ أن

الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون كان حوارا يحاول فيه موسى بالمنطق أن يقنع فرعون بأنه على ضلال.. وأنه ليس إلها.. وأن عليه أن يرضخ ويعتقد بالوحدانية، وأن يرفع الظلم عن الناس.. وعندما لا يعتقد فرعون بما جاء به موسى الذى رباه فى صغره.. لم يجد موسى مفرًا من أن يظهر آيات الله فى إعجازه. عندما يلقى بعصاه فتتحول إلى حية تسعى، وعندما يضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء.. ومع ذلك يظل فرعون على غيه، ولا يرى فيما جاء به فرعون إلا نوعًا من السحر.. وأنه سوف يبطل هذا السحر عندما يسلط عليه السحرة.. فليس هناك إله إلا هو نفسه، وهدده بالسجن إذا لم يؤمن بأنه إله!

﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وعندما تحدد موعد تحدى موسى لسحر السحرة، وألقى السحرة عصيَّهم فتحولت إلى حيات، وألقى موسى عصاه فإذا بها تتحول إلى حية تأكل ما يأفكون.. إذا بالسحرة يندهشون مما يرون.. فإن السحر هو مجرد عملية تجعل الآخرين يتخيلون ولا يرون الواقع.. ولكن عصا موسى لم تكن خداع بصر بل معجزة حقيقية، لأنها ابتلعت عصيهم وحبالهم ولم يعد لها وجود.. إن ما يرون معجزة وليس سحرًا.. ومن هنا فقد أعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون.

والقرآن الكريم بأسلوبه الموجز والمعجز يصور لنا هذا المشهد الفريد.

فقد جاء إلى موسى وحى ربه عندما ألقوا عصيَّهم وحبالهم فخيل

إلى من يرى ذلك أنها حيات حقيقية . . ولكن الله عز وجل يوحى بما يشجعه :

﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

ولم يصدق السحرة أول الأمر، فقد غشيتهم الدهشة . . إن ما يرونه ليس سحرًا . . إنه معجزة . . وكان رد الفعل:

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه: ٧٠].

واعترت الدهشة فرعون الذى سرعان ما هددهم:

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [طه: ٧١].

ولكن الإيمان عندما يدخل القلب من الاستحالة أن يثنيه عن عزمه وعد أو عيد . . قالوا:

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

وبدلا من أن يثوب فرعون إلى رشده تمادى فى غيه وتوعد موسى

وأتباعه بالقتل.

وأوحى الله إلى نبيه الكريم أن يغادر مصر هو وأتباعه.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٢].

وخرج موسى وهارون وأتباعهم هربًا من فرعون، متجهين صوب البحر الأحمر، ولكن سرعان ما شعروا أن فرعون يتعقبهم، وأوحى الله إلى عبده ورسوله وكليمه أن يضرب بعصاه البحر، فإذا بطريق وسط البحر.. فانطلق موسى وقومه، وعندما تبعهم فرعون طوته صفحة المياه:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٠].

وهكذا سار بنوا إسرائيل إلى سنياء، وتحرروا من طغيان فرعون.

وكالعادة التى فُطِر عليها بنو إسرائيل وسرعة تقلبهم وكثرة جدالهم مع أنبيائهم ورسلهم.. رغم النعم التى أسبغها الله عليهم، فقد ضرب موسى بعصاه الحجر فانبثقت منه اثنتا عشرة عينًا.. كما أهداهم الله المنَّ والسلوى.. إنهم هم لم يتغيروا رغم المعجزات التى شاهدوها، فما كاد موسى يذهب إلى المكان المقدس لمناجاة ربه.. حتى عادوا إلى ضلالهم.. ونسوا كل شىء.. وعادوا إلى عبادة

العجل الذى صنعه لهم السامرى!

وعندما عاد موسى إلى قومه ووجدهم قد ضلوا وأضلوا فأحس بالأسى والحزن والثورة فى الوقت نفسه.. قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

وكان جوابهم:

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٧، ٨٨].

وعندما عاتب موسى أخاه هارون قال له:

﴿يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

وكانت حجة هارون أنهم استضعفوه وحاولوا قتله، فما كان من موسى إلا أن قال:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وأحرق موسى العجل وألقى به فى البحر، والعجيب أن قومه تمادوا أيضًا فى عنادهم وكفرهم حتى بعد أن أخذ سبعين منهم لميقات

الله، فقد طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة!

وكادت صاعقة أن تصعقهم لولا دعاء موسى:

﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وأمرهم موسى بالوصايا العشر التى تضمن:

- عبادة الله وحده لا شريك له.
- عدم قتل النفس التى حرم الله قتلها.
- عدم الحلف بالله كذبًا.
- النهى عن القتل والكذب.
- النهى عن السرقة.
- عدم الحسد.
- البعد عن شهادة الزور.
- أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه،
- عدم اشتهاء زوجة القريب وممتلكاته.
- أن يكون هناك يوم للعبادة (السبت).

لقد صام موسى أربعين يومًا عند ذهابه لملاقاة ربه.. ولقد

اشتاقت روحه، وتاقت نفسه لرؤية خالقه، ونسى فى غمرة هذا الحب أن رؤية الله تعالى مستحيلة، فهو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.

إنها الأشواق العارمة فى أعماقه هى التى دفعته فى لحظات هذا الحب العارم أن يطلب من ربه هذا الطلب مع استحالته:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ومن خلال قصة موسى عليه السلام نعرف كيف صبر على قومه من اليهود.. إنهم رغم كل معجزات موسى عليه السلام سرعان ما يرجعون إلى الضلال.

لقد رأوا كيف أنقذهم الله سبحانه وتعالى من بطش فرعون وجنوده وغرقه، وأنهم انطلقوا إلى الجانب الآخر.. إلى أرض سيناء بعد أن أوجد الله لهم طريقًا يابسة وسط مياه البحر. ومع ذلك ضلوا وعبدوا العجل، وعندما حطمه موسى عليه السلام، تمادى بهم الهوى فأرادوا رؤية الله جهرة وأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.. ومن قبل ذلك عندما طلب منهم ذبح بقرة، أخذوا يساومون عن شكلها

ولونها.. وهم لا يريدون ذبحها حتى حددها لهم موسى تحديدًا قاطعًا فذبحوها بعد جدل طويل.

إنهم دائمًا يخالفون رسلهم.

ولم تردعهم المعجزات وتعيد إليهم الوعى، فعندما طلب منهم موسى عليه السلام الدخول إلى الأرض المقدسة رفضوا بحجة أن بها قوما جبارين، وأن عليه أن يذهب هو وهارون لقتالهم، أما هم فلن يذهبوا معه! فكان عقابهم أن يتيهوا فى الأرض أربعين عامًا.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٦].

وما أبعد الفارق بين قوم موسى عليه السلام.. وأمة محمد ﷺ

إذا كان بنو إسرائيل رفضوا القتال وطلبوا من موسى أن يذهب هو وأخوه للقتال.. فإن الموقف اختلف تمامًا عندما سأل النبى أصحابه المشورة وهو يواجه صلف كفار مكة الذين تحركوا لقتال الرسول فى بدر، فما كان من أصحابه إلا أن خرج من بينهم الصحابى الجليل سعد بن معاذ قائلا له:

(كأنك تعرض بنا يا رسول الله؟ فوالذى بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا.. إنا لصُبُر فى الحرب، صُدُق فى اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله).

وقال أحدهم:

(والله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك) شتان بين الموقفين.

وهناك جانب آخر فى قصة موسى عليه السلام. إنه جانب فى غاية الأهمية؛ لأنه يتحدث عن أمور الغيب التى لا نعرف عنها شيئًا.

فما أكثر ما نرى من أحداث الحياة من الأمور المتناقضة التى يصعب على العقل الإنسانى أن يدرك معناها.. ولكن لو أدرك المعنى فإنه سوف يرى أنه ليس هناك تناقض أبدًا فيما تجرى به الأقدار، وأن

ما نراه متناقضًا يرجع إلى عجز عقلنا البشرى.. وهذا يدركه تمامًا من وهبهم الله (العلم اللدنى) من أوليائه الصالحين.

وهذا المعنى يبرز تمامًا فيما ساقه القرآن الكريم بلقاء موسى عليه السلام وهو نبى الله وكليمه مع الخضر عليه السلام الذى وهبه الله هذا (العلم اللدنى).

فموسى عندما سار مع هذا العبد الصالح رأى أمورًا لم يستسغها عقله. كيف يخرق هذا العبد الصالح سفينة ويعيبها. وعندما رأى طفلاً فقتله، وعندما ذهب إلى إحدى القرى ورفض أهل هذه القرية استضافتهما إلى أن رأى العبد الصالح جدارًا آيلا للسقوط فأقامه.

لقد رأى نبى الله موسى عليه السلام فى هذه الأحداث أشياء لا يعقلها عقل.. إنه يريد تفسيرًا لما شاهد من أحداث، رغم أن العبد الصالح قد حذره بأنه لن يستطيع معه صبرًا.. وعلل له ذلك: وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا!

ومع ذلك فقد ضاق موسى عليه السلام بما رأى.. إنها أمور تستعصى تمامًا على الفهم.. وعندما شرح له العبد الصالح ما شاهده من أحداث تيقن كليم الله أن علم الله فوق إدراك البشر، وأن هناك من أصفياء الله من يهبهم الله تعالى بعض علمه اللدنى فيفهمون بأمر الله ما يستعصى على فهم البشر حتى لو كانوا من أنبياء الله ورسله.

وربما هذا الجانب من العلم.. (العلم اللدنى) - من لدن الله

تعالى - كان هو السبب الذى تمسك به الصوفية على أساس أن هناك من عباد الله من ليسوا بأنبياء ولا رسل ومع ذلك يغبطهم الأنبياء والرسل لما وصلوا إليه من قرب الله تعالى.. والله سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الأولياء:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢] وهناك الحديث القدسى الذى رواه الرسول ﷺ:

«من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإذا سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنَّه».

ويقول بعض المفسرين إن الخضر عليه السلام ولى من أولياء الله.. وقد فسر لموسى عليه السلام ما عجز فهمه عن إدراكه.. فإن السفينة كانت لمساكين يعملون فى البحر، وكان هناك ملك ظالم يستولى على السفن لنفسه، فأعاب الخضر السفينة، مما جعل الملك لا تستهويه هذه السفينة، وبالتالى ظلت ملكًا لأصحابها حتى يمكنهم العيش منها.

وأما الغلام الذى قتله فكان سيصبح شقيًا يتعب والديه فأبدلهما الله خيرًا منه.

وأما المنزل الذى أقامه فكان لأطفال يتامى وكان لهم والد صالح، وكان تحت هذا المنزل كنز، وشاءت إرادة الله عز وجل أن يظل هذا البيت متماسكًا حتى يكبر الصغار، ويستفيدوا من الكنز الذى تركه لهم الوالد الصالح.

وهذه بعض من أمور الغيب التى لم يستطع موسى عليه السلام صبرًا عليها.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن

رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٧١ – ٨٢].

والآيات تبين أن الخضر لم يفعل ما فعل بإرادته بل بالهام من الله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

وإذا كان البعض قد قال عن الخضر إنه ولى، فقد قال البعض الآخر إنه نبى!

وقد أورد الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق العديد من كرامات الأولياء، وتحدث عن الحدود الفاصلة بين الكرامة والخرافة، وكان مما قاله:

(وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى: ففى البخارى أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فإذا بالنور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما!)

وفى البخارى أيضًا أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة.

ونادى عمر بن الخطاب: «يا سارية الجبل» يحضه على الرجوع إلى الجبل حذرًا من العدو، وبينهما مسيرة أيام فسمعه سارية، فرجع إلى الجبل وسلم من العدو.

ويقول صاحب كتاب نشر المحاسن عن ظهور الكرامات:

(إن ما جاء عنها فى القرآن الكريم، والأخبار والإسناد ما يخرج

عن الحصر والتعداد، فمن ذلك فى القرآن الكريم ما أخبر الله تعالى عن مريم رضوان الله تعالى عليها بقوله عز وجل:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء.. هكذا جاء فى التفسير. وكذلك إلهام أم موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فى أمرهما ما هو معروف.

وكذلك أخبرنا الله تعالى من العجائب على يد الخضر رضوان الله تعالى عليه مع موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

وكذلك قصة ذى القرنين - رضوان الله تعالى عليه - وتمكين الله تعالى له ما لم يمكنه لغيره. وكذلك قصة عرش بلقيس فى قوله تعالى:

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء بل أولياء).

ويقول الإمام الشافعى:

(ظهور الكرامات على الأولياء - رضى الله تعالى عنهم - جائز عقلاً وواقع نقلاً.

أما جوازه فى العقل فلأنه ليس بمستحيل فى قدرة الله تعالى. بل هو من قبيل الممكنات. كظهور معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين والأصوليين، والفقهاء والمحدثين رضى الله تعالى عنهم أجمعين، وتصاريفهم ناطقة بذلك شرقًا وغربًا، عجمًا وعربًا).

إن قصة موسى عليه السلام.. ومواقفه.. وقربه من الله عز وجل وما فى هذه القصة من عبر وعظات.. تجعلنا نفكر طويلاً طويلاً.. فى الحياة وما وراء الحياة.. وتجعلنا نعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الحق والحقيقة.. وأن العز كل العز والسعادة كل السعادة بالقرب منه، والشقاء كل الشقاء.. والتعاسة كل التعاسة فى البعد عنه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف: ٩٦].

كلمة الله
المسيح عيسى بن مريم
عليه السلام

كلمة الله

المسيح بن مريم عليه السلام

جاء عيسى عليه السلام إلى الدنيا وقد طغت عليها المادة. . وفسد فيها أمر الناس، وعاشوا تحت وطأة ظلم الحكام. . بعد أن عاث الكتبة والفريسيون فى الأرض فسادًا بعد أن انحرفوا عن شريعة موسى عليه السلام.

كانت الحياة فى حاجة إلى من يعيد إليها رونقها، وينشر فيها القيم الروحية النبيلة، وينشر بين ربوع البشر المودة والحب والرحمة. . وأن يظهر النور الذى يبدد من قتامة الحياة المادية المملة. . وكان ميلاد السيد المسيح.

كان قدومه إلى الحياة معجزة وكان ذلك نذيرًا للناس بأن هذا القادم إلى الحياة بلا أب. . بل بنفخة من روح الله سوف يعيد ميزان العدل إلى الحياة. .وينبه الغافلين بملكوت الله. . وينادى فى الناس بكل القيم النبيلة التى تعيد للناس ما يليق بهم ليكونوا على مستوى الحياة.

وإن الإنسان يجب أن يُكرَّم وأن يعامل كبشر وليس كسائمة.

أمه هى مريم التى كانت أمها قد وهبت ما فى بطنها لعبادة الله

تعالى، وعندما وضعتها أنثى أعاذتها من الشيطان:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٥ – ٣٧].

فمريم قد كفلها زكريا عليه السلام، وظهرت كراماتها يوم كان يدخل عليها زكريا فى المحراب فيجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف، وكان ذلك إرهاصًا بالمعجزة التى حدثت بعد ذلك بميلاد السيد المسيح بلا أب.

وحملت مريم بعيسى عليه السلام، وحملت أختها بيحيى بن زكريا عليه السلام (يوحنا المعمدان).

وتمضى الأيام.. ويوحَى إلى عيسى عليه السلام.. مؤيدًا بمعجزات الله حتى يؤمن الناس بما يدعو إليه.. ومعه معجزاته.. من شفاء الأبرص والأعمى، وإحياء الموتى بأمر الله!

ويروى ابن كثير فى (قصص الأنبياء) ما رواه أبو حذيفة بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان

الفارسى - دخل حديث بعضهم فى بعض - قالوا: لما بُعثَ عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون ويستهزئون به فيقولون: ما أكل فلان البارحة وما ادخر فى منزله؟ فيخبرهم، فيزداد المؤمنون إيمانًا، والكافرون والمنافقون شكًا وكفرانًا.

وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه، إنما يسيح فى الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به، فكان أول من أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى فقال لها:

ـ مالك أيتها المرأة؟

فقالت: ماتت ابنة لى لم يكن لى ولى غيرها، وإنى عاهدت ربى ألا أبرح موضعى هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لى فأنظر إليها!

فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟

قالت: نعم.

قالوا: فصلى ركعتين. ثم جاء فجلس عند القبر فنادى:

يا فلانة.. قومى بإذن الله الرحمن فاخرجى.

قال: فتحرك القبر، ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله، ثم نادى الثالثة فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عنى؟

فقالت: لما جاءتنى الصيحة الأولى بعث الله لى ملكًا فركب خلقى.. ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إلى روحى، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة، فشاب رأسى وحاجباى، وأشفار عينى من مخافة القيامة، ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أماه، ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا أماه.. اصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا، يا روح الله وكلمته، سل ربى أن يردنى إلى الآخرة وأن يهون علىّ كرب الموت. فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض.

فبلغ ذلك اليهود فازدادوا غضبًا!

وقد روى السرى عن أبى صالح وأبى مالك، عن ابن عباس فى خبر ذكره وفيه أن ملكًا من بنى إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل فرأى الناس أمرًا هائلاً ومنظرًا عجبًا.

قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١٠، ١١١].

جاء عيسى عليه السلام بمعجزاته تلك ليعيد الناس إلى رحيق السماء.. وإلى رحابة الروح.

ومع أن دعوته واضحة.

ومع أنه مؤيد بوحي الله تعالى.

فقد حاربه الكتبة والفريسيون؛ لأنهم وجدوا أنه بما يدعو إليه يقوض نفوذهم، ولم يكن غريبًا أن يقفوا له ولدعوته بالمرصاد بعد أن كشف زيف ادعاءاتهم، وبعدهم عن شريعة موسى عليه السلام.. وأنهم يضحكون على الناس ويستغلونهم أسوأ استغلال لتحقيق مآربهم وأطماعهم الدنيوية.

لقد حاربوه.. كما حاربوا من قبل ابن خالته يحيى بن زكريا.. والذى قال عنه القرآن الكريم:

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢ - ١٥].

ويحيى هو الذى عمد عيسى عليه السلام وبشر به وقال:

(توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات).

ولكن يحيى قد قتله (هيردوس) بعد تلك المؤامرة التى حاكتها له (هيروديا) وابنتها سالومى، وقدم رأسه الشريف على طبق من ذهب ترضية لهذه البغى من بغايا أورشليم!

وعندما ظهر المسيح عليه السلام فى (الناصرة)، ودعا الناس إلى الإيمان بالله، والعودة إلى شريعة موسى السمحة، والبعد عن الأحقاد والضغائن والآثام، كان من الطبيعى أن يقف ضده اليهود الذين كانوا يستغلون الناس ويفترون على الله الكذب.

وكان من الطبيعى أن ينضم لدعوته كل من كان يشعر بالخوف والظلم والفقر، فقد مست دعوته قلوبهم وعقولهم وهو يقول:

(طوبى للحزانى وللمساكين والجياع).

لقد أعاد عيسى عليه السلام إلى الروح طهرها وقداستها، وإلى الدين عطره وشذاه، ونقى الشريعة مما علق بها من أوهام.. إنها دعوة للفطرة السليمة.. هى الدعوة التى دعا بها كل رسل الله من قبل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾ [البقرة: ٨٧].

وقد تحدث القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام بما هو له أهل:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ

أَيَدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)﴾ [المائدة: ١١٠].

ومن يقف على مثل هذه الدعوة السمحة، وكلماته عليه السلام تمس شغاف القلوب:

(سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لأغنياءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذين فى السموات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين).

إن عيسى عليه السلام جاء بدعوة الحب والرحمة، وحث الناس عليهما، ونهى عن التفسير الحرفى للتوراة والذى أساء به الكتبة والفريسيون إساءة بالغة لما جاء به موسى عليه السلام. لقد بذر المسيح فيهم روح المحبة.. وأنهم عبيد الله لا عبيد الرومان أو الطغاة.. لقد جمع الناس وقال لهم:

* طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات.

* طوبى للحزانى لأنهم يتعزون.

* طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.
* طوبى للجياع والعطاشى إلى البر لأنهم يشبعون.
* طوبى للرحماء لأنهم يرحمون.
* طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.
* طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون.
* طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات.
* طوبى لكم إذ عيروكم وطردوكم وقالوا عنكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين.
* افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

مثل هذه الموعظة الرائعة كانت بلسمًا شافيًا للباحثين عن العدل فى الأرض، والذين يريدون أن يعيشوا حياتهم بلا منغصات.. والذين يريدون المثوبة من الله.. ولكن هذه الكلمات نفسها كانت تؤرق الذين يتاجرون فى الدين، والذين يفهمون شريعة موسى عليه السلام فهمًا حرفيًا ولا يريدون أن يفهموا روح هذه الشريعة السمحاء.. إن الحق واضح وضوح الشمس وسط النهار.. ومع ذلك فالذين حاربوا هذه الدعوة قد عميت عيونهم.. وصمت آذانهم.. إنهم لا يرون إلا الضلال.

كانت دعوة عيسى عليه السلام بمثابة انبلاج النور وسط الظلام.. وقد أيده الله بمعجزاته.. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٨ - ٥١]

ودارس سيرة هذا النبى الكريم الذى لاقى ما لاقى فى سبيل دعوته إلى الله.. يتعجب من جهالة البعض.. فكيف لهم بإنسان خُلق بمعجزة - كمعجزة آدم عليه السلام - من غير أب، وبشرت به الملائكة، وحدث الناس فى المهد.. وكانت له معجزات رآها معاصروه رأى العين.. كيف يرون كل ذلك ويكذبون؟

كانت حياة المسيح كلها طهر ونقاء. فيكف يكذبونه؟

لقد صعد الجبل يومًا وخطب الناس قائلاً لهم:

(قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزنى، وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه، فإن كانت عينك

اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسمك كله فى جهنم).

وقد أعجبنى هذا الحوار بين المسيح عليه السلام وبين تلاميذه والذى ساقه من إنجيل (برنابا) الكاتب الكبير عبد الحميد جودة السحار فى كتابه (المسيح عيسى بن مريم).

- أين بيتك يا روح الله؟

- بيتى المساجد، وطيبى الماء، وإدامى الجوع، وسراجى القمر بالليل، وريحانى بقول الأرض، ولباسى الصون، وشعارى خوف رب العزة، وجلسائى الزمنى والمساكين، أصبح وليس لى شىء، وأمسى وليس لى شىء، وأنا طيب النفس غير مكترث، فمن أغنى منى وأربح؟

لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء.. طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا، إن الشيطان مع الدنيا، وفكره مع المال، وتزينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات.

طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته، وحفظه لسانه، ووسعه بيته.

طوبى لعين نامت، ولم تحدث نفسها بالمعصية، وانتبهت إلى غير إثم.

وسرت النشوة فى صدور الناس، فصاحت امرأة:

ـ طوبى لحجر حملك، ولثدى أرضعك.

ـ طوبى لمن يسمع كلام الله ويعمل به.

واستمر فى موعظته:

ـ الحق أقول لكم: من طلب الفردوس، فخبز الشعير، والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير.

لا تطرحوا اللؤلؤ على الخنازير، فالخنازير لا تصنع باللؤلؤ شيئًا.

ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها. فإن الحكمة خير من اللؤلؤ، ومن لا يريدها شر من الخنزير.

أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم.

ومالت الشمس إلى المغيب، واختفت خلف التلال القريبة والجماهير فى مكانهم لا تريم، ونظر الحواريون فأعجبتهم كثرة بنى إسرائيل الذين جاءوا يسمعون المسيح. إنهم يذكرونهم بآبائهم الذين خرجوا مع موسى، ها هى ذى الصحراء.. وها هى ذى جموعهم.. وها هو ذا رسول الله، ولكن أين المن والسلوى؟ أطعم الله آباءهم من السماء فلماذا لا يطعمهم كما أطعم الآباء.. فذهبوا إلى عيسى وقالوا له:

ـ يا عيسى ابن مريم.. هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء.

فنظر إليهم فى عتاب وقال:

ـ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين.

قالوا:

نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين.

فاعتزل وأطرق رأسه وأسبل عينيه وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال.. قال عيسى ابن مريم:

﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾ [المائدة: ١١٤، ١١٥].

وقد اختلف المفسرون فى تفسير ما جاء فى القرآن الكريم حول هذه المائدة.. بعضهم قال إن الله أنزل هذه المائدة من السماء التى نزلت بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة، وأن يجعلها بركة وسلامة، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام، وهى مغطاة بمنديل فقام فكشف عنها وهو يقول (بسم الله خير الرازقين) فإذا بها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة.

وهناك من يرى أن المائدة لم تنزل أصلاً لما خشى الحواريون أن تكون نقمة.

ويقول محمد فريد وجدى فى تفسيره:

وإذا أوحيت إلى الحواريين، أى أمرتهم على ألسنة رسلى (لأن الوحى لا يكون إلا للأنبياء ولم يكونوا هم أنبياء) أن آمنوا بى وبرسولى (عيسى)، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون، أى مخلصون مستسلمون.

إذ قال الحواريون: يا عيسى هل يجيبك ربك لو سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء؟

قال: خافوا الله من أمثال هذا السؤال إن كنتم مؤمنين.

قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا بانضمام المشاهدة إلى الاستدلال بكمال قدرته، ونتحقق أن قد صدقتنا فى ادعاء النبوة.. فدعى عيسى ربه قائلاً:

(اللهم أنزل علينا مائدة من السماء يكون يوم نزولها عيدًا يعظمه أولنا وآخرنا وآية منك وأنت خير الرازقين).

قال الله إنى منزلها إليكم من السماء، فمن يكفر منكم بعد شهودها فإنى أعذبه تعذيبًا لا أعاقب به أحدًا من العالمين.

قال بعض المفسرين: فنزلت لهم من السماء سمكة وخمسة أرغفة

وجميع البقول إلا الكرات، وذهب بعضهم إلى أنهم لما هُدِّدوا هذا التهديد استعفوا عيسى عليه السلام وقالوا لا نريدها فلم تنزل.

* * *

ظل المسيح يلقى عظاته.. ويبلغ دعوة الله إلى الناس.. فتلين قلوب لنداء الحب.. وتغفل قلوب ضدها.

وظل أعضاء السنهورين يمكرون ويفكرون فى وسيلة للتخلص منه، وإيغار صدر (بيلاطس) عليه بتهمة أنه يؤلب الناس للثورة على القيصر.

لقد كان المسيح عليه السلام يدعو الناس وكله ثقة بالله.. وكان يشعر أن هناك من يتألب عليه. فقد نظر ذات يوم إلى (أورشليم) وقال:

(أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا.. هو ذا بيتكم رهين بالخراب).

وشعر السيد المسيح أن حياته قد أوشكت على النهاية، بينما كان يتجه صوب (أورشليم) مع تلاميذه فقال لهم:

(ينبغى أن أسير اليوم وغدا وما يليه، لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارج أورشليم، يا أروشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين).

وفى أورشليم.. كان الناس يتجمعون حوله ويسمعون كلماته الصافية، وكان الكتبة والكهنة والفريسيون يضيقون ذرعًا بذلك، إنهم يتربصون به الدوائر.. بعد أن حاولوا الوقيعة بينه وبين الحكام من قبل دومًا.. ثم قرروا محاكمته.. أمام مجمعهم لتكون إدانته وسيلة لينفذ الحاكم الرومانى حكمهم فيه.

ولعب (يهوذا) الإسخربوطى دوره ليسلمهم السيد المسيح، وعندما صدر الأمر بصلب المسيح، وأخذ لينفذ فيه هذا الحكم الظالم، رفعه الله إليه.. والقرآن الكريم يقول:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨].

وكانت دعوته عليه السلام نورًا هداية للبشر.. ودعوة للحب فى زمن ضاع فيه الحب.. وإيذانًا بدعوة شاملة تأتى من بعده للناس كافة.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] صدق الله العظيم.

محمد عليه الصلاة والسلام

آخر رسل الله

محمد عليه الصلاة والسلام
آخر رسل الله

وتمضى قافلة الزمان.

وتتغير الدنيا.

ويزداد سلطان الإمبراطورية الرومانية التى تسوم العالم سوء عذاب.. وتزداد هيمنة الإمبراطورية الفارسية على من يدين لها بالولاء.

ورغم الصراع والحروب الدائرة بين كلتا الإمبراطوريتين إلا أن نفوذهما على من يعيش تحت سطوتهما كان واضحًا ملموسًا.

وكانت شبه الجزيرة العربية تعيش تحت ظلام الجهل والجاهلية.

وشعوب أوربا شراذم من شعوب بالغة التخلف والهوان.

وهذا يعنى أنه قد آن الأوان لظهور آخر رسالات السماء.. الرسالة الخالدة التى جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين.. محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.. والذى سرعان ما توجه إلى الناس يدعوهم إلى الدين الجديد «أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة».

لقد جاء عليه الصلاة والسلام بالشريعة الخاتمة:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

جاءت رسالة النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام لتهدى البشرية إلى الطريق المستقيم.. وتبنى المجتمع الإسلامى على أساس من القوة والتمدن والاستنارة، وإقامة حضارة يانعة مزدهرة بفضل مقومات الدين الحنيف فى سمو اعتقاده بالوحدانية، وبالعدالة الاجتماعية التى يفرضها على أتباعه، وبالشريعة الغراء التى لا تجعل المؤمن يحيد عن طريق الرشاد.

كان عليه الصلاة والسلام قبل أن تأتيه الرسالة الخاتمة كثير التأمل فى الوجود والموجودات من حوله، وكان يتفرغ لهذا التأمل فى غار حراء.. إلى أن جاءه وحى السماء.. وكان أول ما نزل عليه ﴿اقْرَأْ﴾.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ

﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥].

فبداية الدعوة: العلم.

كان على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوض نظام المجتمع الجاهلى القديم.. يقوض ما تعارف عليه الناس من عبادات للأصنام، وعادات بالية سخيفة، وأن ينقذهم من هوة الضلال والطغيان والتحجر، وأن يقيم مجتمعًا جديدًا عماده الإيمان، والطريق إليه العلم، والعلم يقود إلى العبادة الصحيحة والسلوك الصحيح.. ولم يكن من السهل على دعوة تقوض كل ما تعارف عليه الناس أن تنتشر بسهولة ويسر، بل كان لابد من المقاومة من طغاة المشركين، وعباد العادات والتقاليد.. والخائفين على نفوذهم..وعبيد أهوائهم.. ومن هنا فقد جن جنون مكة عندما دعاهم أعظم رسل الله إلى ما فيه حياتهم.. فناصبوه العداء.. وتعرضوا بالإيذاء له ولأصحابه،حتى بلغ بهم الجنون مداه حين حاصروه عليه الصلاة والسلام وقومه وأتباعه فى شعب من شعاب مكة لا يبيعون لهم ولا يبتاعون منهم، وحرروا بذلك وثيقة ظالمة، بل إن بعض المسلمين قد هاجروا إلى الحبشة هربًا من إيذاء مكة وصلفها، إيذاء لا لشىء إلا أن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام دعاهم إلى النور فأبوا إلا الظلام.. وحثهم على الرشاد فاختاروا الضلال.. وأرشدهم إلى العلم فتمادوا فى الجهل:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكانت دعوته عليه الصلاة والسلام واضحة المعالم والقسمات.. فقد قال لهم أفضل خلق الله:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وكان لابد لدعوة منزلة من السماء أن تنتصر مهما تكن قوة الطغيان وبطش المتكبرين.. فقد صمد الرسول وأصحابه وهو يدعو إلى الله فى مكة ثلاثة عشر عامًا، إلى أن أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة، حيث أصبح الأنصار والمهاجرون قوة قادرة على كبح جماح الشرك والكفر، وبناء حياة جديدة على أسس من الإيمان، وأذن الله تعالى لهم بالجهاد:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وكانت المعارك الضارية مع أعداء الله ابتداء من غزوة بدر حيث انتصر المسلمون انتصارًا ساحقًا على مشركى مكة رغم كثرة عددهم وعتادهم، وقلة عدد المسلمين وعتادهم، إلى مختلف الغزوات والسرايا... مثل معارك أحد، والأحزاب، إلى أن تمكن الرسول عليه الصلاة والسلام من دخول مكة نفسها، وارتفعت رايات الإسلام

ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، حيث انتصر الرسول على يهود المدينة.. وجاءت الوفود من كل أنحاء الجزيرة العربية يعلنون إسلامهم، وعم النور البقاع المقدسة.. هذا الدين الذى انتشر بعد ذلك بسرعة الضوء ما بين الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا بفضل تعاليمه وما فيه من قيم تضىء للإنسانية معالم دينهم ودنياهم.

والنبوة - على حد تعبير الدكتور محمد عبد المنعم القيعى - فى نظر الإسلام تعتمد أولاً على هداية العقل والقلب، والخوارق أمر ثانوى وسيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، بعثه الله إلى جميع الإنس والجن، وقد نسخ الله بدينه كل ملة، وألزم أهل الأرض اتباع شريعته التى بعثه بها، ولا يقبل من أحد سواها، فلا نبى بعده! ولا رسول عقبه، لأن شريعته هيمنت على كل الشرائع، وسدت مسدها، وقدمت للعقل البشرى ما يطمئنه فى الداخل والخارج، ففى داخله أوجبت عليه عقيدة لا تفرق بين الله ورسله، ولا بين أحد من رسله، فإذا كانت الجنة لمن آمن بموسى، أو بعيسى، أو بغيرهما؛ فنحن نؤمن بكل الأنبياء كإيماننا بمحمد ﷺ الذى أنزل عليه ربه قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢)﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

وقدمت شريعة الإسلام للعقل البشرى ما يطمئنه فى العالم الذى يعيش فيه، فشرعت نظامًا أساسه الحرية والمساواة، وهدفه تهذيب الفرد والمجتمع، ثم إقرار العدل، وأخيرًا رعاية المصلحة، فهو نظام وفوق النظام سلطان يرعاه ويطبقه، وفوق السلطان برهان من العقل والشرع، فلا جور ولا استبداد وفى الحديث:

«القضاة ثلاثة: اثنان فى النار وواحد فى الجنة، وهو من علم الحق وقضى به، واللذان فى النار هما اللذان جهلا الحق أو من علما الحق وأعرضا عنه».

وعندما نتأمل شمائل أعظم رسل الله.. القدوة العظمى فى أخلاقياته وسلوكياته.. نرى فيه المعلم والإنسان، ونشعر من خلال شخصيته الآسرة بالوفاء، وحب الخير، والتواضع والزهد، كما نرى العابد الذى تتورم قدماه من كثرة الوقوف بين يدى خالقه وهو الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ولنقف بعض الوقفات مع هذ الشخصية العظيمة فى بعض مواقفها، لأن مواقفه عليه الصلاة والسلام تحتاج إلى مجلدات.

إن النبى الذى شاءت إرادة الله أن يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب جاء ليعلم الناس، ويحببهم فى العلم، والأخذ بأسباب التقدم، قال لأصحابه فيما قال يحببهم فى العلم وأهله:

* «لا يزال الإنسان بخير ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل!»

* «مداد العلماء يزن عند الله دماء الشهداء».

* «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطى».

ويقول لنا أعظم رسل الله ببلاغته المعهودة:

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وكان منها أجادب أمسكت الماء. فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا.

وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (رواه الإمام البخارى).

ودارس سيرة النبى الخاتم سوف يرى ما اتصف به الرسول الكريم من صفات رفيعة، فقد كانت مجموعة هذه الصفات الحميدة التى اتسم بها ، لم تظهر عندما أصبح نبيًا رسولاً، بل كانت سمة من سماته قبل الرسالة وبعدها، أى أن الله سبحانه وتعالى أنشأه وبه كل المميزات التى تجعله قادرًا على تبليغ الرسالة الخالدة للناس جميعًا، وتحمل كل المشاق والصعاب التى تواجه كل الأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين.. كان شديد الذكاء.. بليغًا.. صبورًا..

شجاعًا. . عفًا. . نزيهًا. . متواضعًا. . زاهدًا. . عفيفًا. . حتى إن الجاحظ وصف بلاغته فقال: (الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط فى موضع البسط، والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام حُفَّ بالعصمة، وشُدَّ بالتأييد، ويسر التوفيق، وهذا الكلام الذى ألقى الله تعالى المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الالهام، وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أتم نفعًا، ولا أصدق لفظًا،ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح فى معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم).

وقد وصفه هند بن أبى هالة فقال:

(كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليس له

راحة، ولا يتكلم فى غير حاجة، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فضلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافى ولا المهين يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئًا لم يكن يُذمه، ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض أحد للحق بشىء حتى ينتصر له، إذا أشار فبكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام).

إن هذه الشخصية المبهرة التى هيأها الله جل علاه لمهام أعظم رسالة فى الوجود وصفها صحابى جليل وهو أبو هريرة بقوله:

(كان يقبل جميعًا، ويدبر جميعًا، بأبى وأمى، لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا فى الأسواق).

ويصف لنا الشيخ محمد أبو زهرة هيبة الرسول فيرى أن هيبته فى القلوب كانت أشد ما تكون هيبة الرجل الذى اختاره الله تعالى رسولاً للعالمين، وما كان تواضعه إلا لما يعلمه من فرط هيبته، فيلطفها بذلك التواضع، بل إنهما نبعا من هيبته واحدة، فهما متآخيتان، بل إنه لا يتواضع من غير أن يتضع، إلا من يكون قويًا فى نفسه، لا يحس بأنه ينزل إلى المهانة فيما يفعل، وفيما يدع.

ولقد وصف الواصفون مجلس النبى عليه الصلاة والسلام بين

صحابته بما يدل على عظيم مهابته، وقوة وقاره وسمته، فقد كان مجلسه عليه الصلاة والسلام يحفه الوقار، ولا يتكلمون إلا إذا أذن فى القول، ولا يبعدون عن إرادته، ولكن فى تواضع واطمئنان.

وكان أحيانًا يحرص على أن ينزل ثم ينزل ليقرب منه الذين يحدثهم ويريد هدايتهم، وأحيانًا كان النساء يسترسلن فى القول فى مجلسه من غير أن يكون منه جفاف القول، وهو قادر على إسكاتهن بنظراته، ولكنه لا يرفضهن، ولا يمنعهن. وقد كان يرشد بعض النسوة، فكن يتسابقن فى سؤاله، فتصايحن عليه، فدخل عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه، وهن يتصايحن فى تسابق إلى السؤال، فسكتن، فابتسم رسول الله ﷺ حتى بدت سنه، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله.. ما الذى أضحكك؟

فقال الرسول الكريم الرءوف الرحيم:

«هؤلاء النسوة كن يتصايحن علىَّ فلما رأينك سكتن».

فقال عمر:

- أى عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله؟

فقالت إحداهن: ولكنك أفظ وأغلظ!

فأسكتها الرسول وقال قول القوى المهيب نافيًا الغلظة عن صاحبه:

«لا، إن الشيطان لا يسير فى فج يسير فيه عمر» ولم يكن عمر

أشد هيبة من النبى بل النبى المهيب المحبوب، ولكنه يتكامن ليصل إلى القلوب، وهو لا يترك هيبته ترهب، ولكنها هيبته ما كانت إلا لترشد، فالإرشاد غايته فى حاليه مهيبًا ومتواضعًا.

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة أيضًا:

(وإن أخبار هيبته فى مبدأ البعث لها صور ووقائع، ولكن ما كان عليه الصلاة والسلام يسلط هذه الهيبة التى تفرض صاحبها إلا نادرًا، لتكون استجابة الدعوة عن الاقتناع المجرد الذى لا يدخله رهبة ولا ترغيب إلا ما يكون من رضا الله تعالى يوم القيامة.. ولكن إن كانت المواجهة بينه وبين زعماء الشرك وجهًا لوجه، ورأى فيهم استهزاء مقيتًا، وانفرد بهم، بيَّن بأس الله تعالى عليهم وقوته، وما وهبه الله تعالى من هيبة ربانية).

والإنسان ليقف أمام هذه الشخصية الآسرة متأملاً فى تلك العظمة التى لا يمكن أن نرى مثيلاً لها.. إنه وهو النبى الخاتم..والذى يقف أتباعه أمامه وكأن على رءوسهم الطير عندما يتحدث إليهم كانت إنسانيته تفوق كل مناسيب الإنسانية.

عندما يموت ابنه إبراهيم يتساقط الدمع غزيرًا من عينه ويقول:

«الموت حق، وإن القلب ليحزن، والعين لتدمع، وإنا لفراقك يا إبراهيم محزونون».

وعندما صادف يوم موت ابنه كسوف الشمس، تصور بعض

الصحابة أن الشمس كسفت حزنًا على إبراهيم، فإذا النبى المعصوم يقول لهم:

«إن الشمس والقمر من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته».

وما أعظمه عليه الصلاة والسلام فى رحمته ورفقه وعفوه عندما يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء:

«اللهم إنى بشر من البشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل دعوت عليه، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة، وصلاة وطهورًا، وقربة تقربه إليك يوم القيامة».

والحديث عن عظمة محمد بن عبد الله لا ينتهى.. فهو قد اصطفاه الله ليكون آخر رسل الله على الأرض، وهيأه للرسالة الخالدة التى سوف ترسى دعائم تعاليم السماء، وتكون أعظم حضارة لها بسماتها الخاصة.. وتجمع بين المادية والروحية، وبين الروح والمادة.. فالإسلام عقيدة وعبادات وشرائع وقيم ومبادئ ومثل عليا.. حمله إليهم هذا الرسول العظيم الذى قال فيه ربه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

والذى درس سيرة النبى عليه الصلاة والسلام دراسة متعمقة وعرف كيف كان يدعو إلى الله وإلى دينه، يجد نفسه مبهورًا

بشخصية محمد ﷺ فى إيمانه العميق وقدرته الهائلة على الإقناع، وصبره صبرًا يفوق صبر البشر وهو يحاول أن يقنع الناس بالإسلام بالحسنى وبلا إكراه.

ولنضرب مثلاً:

عندما حقق الإسلام انتصاراته الباهرة على أعدائه.. ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.. ولم تعد هناك قوة فى شبه الجزيرة العربية كلها قادرة على التصدى للإسلام.. كما أن القوى الخارجية المتمثلة فى الإمبراطوريات العظيمة، فى ذلك العهد متمثلة فى الفرس والرومان، كانوا يرصدون ما يحدث عقب انتصارات الإسلام المذهلة، وبدءوا يشعرون بالخطر المحدق بهم من الدين الجديد، وبدءوا محاولاتهم اليائسة لمحاربة هذا الدين الجديد.. ولكنهم كان يتهيبون هذه المجابهة كما حدث فى (تبوك).. وأصبح من الواضح أن هذا الدين الجديد لن يقف أمام انتصاره حائل.. وهذا ما أثبته التاريخ بالفعل عندما قهر خلفاء الرسول كلتا الإمبراطوريتين.

تيقن الناس جميعًا بأن هذا الدين غالب، ولن يقف أمام انتشاره أحد، لأن الإسلام وهو ينتشر بسرعة البرق كان ينتشر لأنه دين يجذب القلوب والعقول إليه بسهولة ويسر، فهو دين الفطرة.. لا يتنافى مع المنطق أو العقل.. وليس فيه كهنوت ولا غموض.. ولا حتى رجال دين.. فرجال الدين فيه هم العلماء بما جاء به هذا الدين، ولكن ليس لهم وصاية على أحد.

ذات يوم. . وبينما كان أعظم رسل الله جالسًا فى مسجده بالمدينة قال لأصحابه:

«سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق، لم يكرهوا على الإسلام، وقد أنفوا الركائب وأنفوا الزاد».

وعندما ارتسمت الدهشة على وجوه الناس، قال لهم:

«اللهم اغفر لعبد القيس».

وعندما حضر وفد البحرين،وفيهم (الجارود بن عمرو) وكان نصرانيًا، ودخلوا على الرسول مسجده. . قال (الجارود) للرسول:

- يا محمد، إنى قد كنت على دين، وإنى تارك دينى لدينك، أفتضمن لى دينى؟

أجابه النبى الخاتم:

«أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه».

وهدى الله (الجارود) إلى الإسلام وقال للرسول الكريم:

- والذى بعثك بالحق، لقد وجدت صفتك فى الإنجيل، وقد بشر بك ابن البتول، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وأسلم بإسلام (الجارود) من كان معه من قومه.

وسأله الرسول:

«يا جارود: هل فى جماعة (عبد القيس) من يعرف لنا قُسًا».

(يقصد قس بن ساعدة الإيادى).

قيل:

ـ كلنا يعرفه يا رسول الله!

قال الجارود:

وأنا من بين القوم كنت أقفوا أثره، كان من أوساط العرب فصيحًا.

قال الرسول الكريم:

«على رسلك يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى أحفظه».

هنا قال أبو بكر الصديق، وكان قد حضر قس بن ساعدة الإيادى عندما كان فى سوق عكاظ، حيث خطب خطبته الشهيرة:

(أيها الناس، اسمعوا وعوا، وإن دعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ إن فى السماء لخبرًا، وإن فى الأرض لعبرًا).

ذكر الصديق لهم خطبة قس بن ساعدة الإيادى.

وعندئذٍ جاء (عبد الله بن عوف الأشج) وكان قد تأخر قليلاً عن الركب، وكان دميم الوجه، وعندما دخل على الرسول شعر كأن

الناس ينظرون إلى دمامته فقال:

- يا رسول الله، أنه لا يستسقى فى جلود الرجال، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه.

وهنا تظهر عظمة خاتم الأنبياء والمرسلين، لقد أعجبه فصاحة عبد الله فقال له:

«إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة».

وأوضح لهم الرسول ما جاء به الإسلام.. فأعلنوا إسلامهم.

ومع كل الوفود التى جاءت مبايعة للرسول توجد مثل هذه الحوارات التى تدل على سعة صدر النبى الكريم ورحمته وحبه للناس وخفض جناحه لهم.

وتمضى الأيام.

ويخطب الرسول عليه الصلاة والسلام فى جموع الناس فى عرفات خطبة الوداع.. التى ألقى فيها الرسول العظيم وصاياه الخالدة، والتى نزل أثناءها قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وشعر الناس بعد هذه الخطبة بأن الرسول العظيم يودع الدنيا، فماذا بعد إكمال الدين إلا الرحيل إلى أكرم جوار.

لقد كان جبريل عليه السلام يدارسه القرآن مرة فى السنة، ولكنه فى آخر رمضان صامه الرسول عليه الصلاة والسلام دارسه القرآن مرتين، وأيقن الرسول العظيم بالرحيل فقال لابنته فاطمة: «إن جبريل كان يعارضنى القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضنى العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلى».

وبعد ستة شهور انتقل الرسول العظيم إلى الرفيق الأعلى.. وعندما دخل عليه الصديق أبو بكر والفاروق عمر وبعض أصحابه من الأنصار والمهاجرين، قالوا:

(السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته).

(اللهم إنا نشهد أن نبيك قد بلغ ما أنزل عليه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله، حتى أعز الله به دينه، وتمت كلماته، فآمن الناس بك وحدك لا شريك لك، فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذى أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، فإنه كان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا).

* * *

وندعو نفس الدعوة: اللهم اجمع بيننا وبينه، فإنه كان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا.. صلى الله عليه وسلم.



الرسالة والرسول

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

[آل عمران ١٥٩]

❊ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

«حديث شريف»

الرسالة والرسول

لقد جاء محمد بن عبد الله رسولاً للبشرية كلها. . ليس لأمة دون أمة. . لأن ديانته هى الديانة التى جمعت جوهر كل الأديان، ورسمت الخطوط العريضة لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى علاقته بخالقه وعلاقته بالكون، وعلاقته بالآخرين، وما ينبغى أن يعرفه ويعمل به من أجل دنياه وأخراه. . ولا ينبغى لمن يؤمن بالإسلام أن يعبد إلا الله جل شأنه وحده. . فليس له شريك فى الملك. . وهو وحده الذى حدَّد للإنسان عمره على هذه الأرض. . وهو الذى يُردّ إليه الأمر كله.

وليس هناك واسطة بين العبد وربه. . ولا كهنوت فى الإسلام، ولكن على المرء أن يعرف أمور دينه ويتفهمه. . ولا يجرى وراء القشور. . بل عليه أن يتمسك بالجوهر.

لقد حمل سيد الرسل والأنبياء رسالة الإسلام وبلغها على أجمل وجه، وعانى فى سبيلها ما عانى مما يفوق قدرة الاحتمال البشرى. . وكانت رسالته هدية الله إلى البشر، إذ بعث إليهم رسول الرحمة ليكون للناس بشيرًا ونذيرًا.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وجاء النبى العظيم الخاتم ليضع الأمور فى نصابها. . فالدين فيه كل المقومات التى تجعل من الإنسان إنسانًا فيه من الإنسانية ما يبعده ويرفعه عن مرتبة الدواب، ويقربه إلى صفوف الملائكة.

دين لا يجحد العقل ولكن يعلى من قدره.

دين يدعو أصحابه إلى قراءة كتابة الكون والتأمل فيما صنع الله، حتى يمكنهم أن يستنبطوا القوانين التى تحكم الأشياء وبذلك يتقدم العلم إلى ما لا يمكن أن يخطر على بال.

فيه ثوابت لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وفيه متغيرات ليتمكن العقل الإنسانى من استنباط مستجدات الحياة، ومن هنا فقد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لتستفيد منه كل العصور وتنتفع بالمتغيرات فيتجدد الفكر الإنسانى، ويساير كل عصر وكل زمان.

وهذا الدين السمح الذى لا يكره المؤمنون به غيرهم على الدخول فيه، كان واحة يتمتع فى ظله الجميع.

وكانت شخصية الداعية الأعظم عليه الصلاة والسلام فى لينه ورحمته وحبه مثالاً شامخًا للإنسان الكامل الذى زادته النبوة عظمة وجلالا، فإذا بالضعفاء والفقراء يلوذون به، ويجدون فى قلبه الكبير متسعًا لشفاء آهاتهم المكتومة ويحثهم على واقع جميل تصبح الحياة

جديرة بأن تعاش، ورأى فيها المتجبرون والطغاة وعتاة الكفر صاحب شخصية قوية آسرة لا يثنيه عن الحق كل ما توعدوه به من بطش وتنكيل.. إنه صاحب المواقف الخالدة التى لا تعرف أنصاف الحلول.

إنه القائل لعمه أبى طالب:

«والله يا عماه.. لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وقد وصفه ربه جل شأنه بقوله:

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكيف لا تلتف حوله العقول وقد كان حديثه تطبيقا حيًا لسلوكه، فلم يقل شيئًا ويفعل شيئًا آخر.

إنه القائل:

«إنما أنا عبد آكل وأجلس كما يأكل العبد ويجلس، وأنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيْنا أو ضيعة فإلىَّ وعلىَّ».

مثل هذه الشخصية الآسرة المؤهلة تأهيلاً عظيمًا للقيام بأعظم رسالة عرفها الوجود كان لابد لها أن تغزو كل قلب وكل عقل.. وتصبح فى نظر المؤمنين أحب إليهم من أنفسهم.

إنه نبى بشر:

لم يعش حياة الملوك ولا الأباطرة عندما دان له الجميع بل عاش كواحد منهم وإن كان أزهدهم وأرأفهم وأرحمهم بالناس.

وكان الإسلام هو خلاصة كل الديانات السابقة عليه، ومكمل لها ليكون الدين الخاتم، يقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

فالإسلام إذن يَجُبُّ كل الرسالات السابقة ويسودها.. وهو يقوم على ركنين: العقيدة والعمل.

العقيدة وتعنى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له.. ولا عبودية لغيره وهو القاهر فوق عباده وليس كمثله شىء وهو يدرك كل شىء.. ويعرف أسرار كل شىء.. ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

والله مع كل قدراته يحب عباده، ويهديهم إلى سواء السبيل، لأنه يقول عن نفسه جل علاه:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

والإسلام يصور لنا عالم الغيب على أنه عالم به من الملائكة ما يسبحون الله ويقدسونه ولا يعصون الله ما أمرهم.

وفيه أيضًا عالم الشياطين الذين يحاولون تضليل الناس وغوايتهم.. كما أن هناك عالم الجن المكلفين بالعبادة ومنهم الخيرون ومنهم الأشرار.

وعلى الإنسان فى دنياه أن يحاول أن يتشبه بالملائكة فى طاعتهم لله دون أن ينسى أنه إنسان خلقه الله جل علاه لعمارة الكون، فلا ينسى نصيبه من الدنيا بعد أن يؤدى ما عليه من فروض فرضها الله عليه، كالصلاة والزكاة وصيام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا.. لأنه بأدائه هذه الفرائض يصبح إنسانًا طائعًا للخالق جل علاه.

ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.. والإنسان بطاعته لله جل علاه إنما يعمل لنفسه، ويجزى بحب الله والناس له فى الدنيا، والجنة فى الآخرة، وإن عصى الله باقترافه ما حرم عليه من قتل وزنا وشهادة زور، والضرر بالناس سواء بالسرقة أو باغتيابهم ونهب أعراضهم، وشرب الخمور.. وكل النواهى التى نهى عنها دينه الحنيف، يصبح فى زمرة الذين يكرههم الله ويكرههم الناس ومصيرهم جهنم وبئس المصير.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]

ويقول القرآن الكريم ببيانه المعجز وهو يصف الناس بين الخير والشر، والهدى والضلال:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

فأصول الإسلام تتمثل فى العقيدة التى يجب أن يؤمن بها المسلم وهى عقيدة التوحيد الخالص، والعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولا يوجد كالإسلام دين رسم المنهج السليم للمؤمنين به.. سواء فى علاقاتهم مع خالقهم والتقرب إليه بما فرضه عليهم من عبادات، ومراعاة الخالق العظيم فى معاملاتهم للناس.. فالمؤمن لابد أن يتقى الله فى كل صغيرة وكبيرة، فيراعى العجزة والأيتام والمرضى، ويرحم الضعيف، كما رسم سلوك المؤمنين فى غض البصر، والبعد عما يُذهب العقل من خمور ومسكرات، وألا يرفع المسلم صوته، ولا أن يمشى فى الأرض مختالاً فخورًا.. كل هذه السلوكيات الرائعة

موجودة فى آيات القرآن الكريم، تنشر عبيرها وشذاها فى مجتمع المؤمنين فيغدو مجتمعًا قويًا متماسكًا. . فيه العدل والتكافل الاجتماعى.

ولنقف عند بعض الآيات الكريمة التى تحث على طهارة النفس حتى تسمو وتعرج إلى سماء النقاء. إنه يصف المؤمنين بقوله:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٠].

إن غاية الإسلام هى إقامة المجتمع الإسلامى المثالى الذى لا ترتفع فيه أنات مظلوم، ولا صرخات محتاج، ولا أنين مقهور.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وتبلغ عظمة هذا الدين القمة عندما يطلب من الإنسان أن ينمى

ملكاته العقلية، وأن يكون إيمانه عن يقين كامل، فإن كان الإيمان مقره القلب، فإن على الإنسان أن يتدبر بالعقل ما حوله من الموجودات.

فالكون فى نظامه البعيد، والنجوم والكواكب فى أفلاكها، وكل ما حول الإنسان من موجودات لا يمكن أن تأتى عبثًا فإن وراء هذا النظام الدقيق فى الكون الخالق الأعظم الذى قدر الأمور، ووضع كل شىء فى نظام رائع دقيق.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن ما جاء به الإسلام من دعوة لاستخدام العقل فى فهم كون الله، وقراءة هذا الكون والنهى عن جهالة الجاهلية وما فيها من خرافات وأساطير لا تنير طريقًا ولا تفتح أفقًا ولا تؤدى إلى واقع مستنير.

الإسلام يفتح كل الآفاق نحو العلم والتقدم والمدنية والازدهار ويدعو إلى قراءة كل ما فى الكون من محسوسات ومعرفة القوانين التى تحكم المادة، والحث على فهم العلاقة بين الموجودات حتى تعرف عظمة الخالق الذى حقق لنا كل شىء، وأودعنا العقل الذى نتعرف به

- حسب إمكانيات هذا العقل ـ ما يمكّننا أن نعيش حياتنا، ونتقدم علميًا وحضاريًا، دون أن ننسى رحيق الروح التى تجعل للحياة معنى ومذاقًا.

فالإسلام وهو يحثنا على العلم والمعرفة يجعلنا لا ننسى أن الحياة المادية وحدها لا تكفى، بل أن المادة وحدها تغرق الإنسان فى الأوحال والطين، ولكن بجانب لمسات الروح وشفافية هذه الروح عن طريق العبادات يصبح الإنسان وهو يعيش حياته يسمو بروحه إلى معارج الملائكة.

والرسول العظيم يحدثنا عن فضل العلم والعلماء حتى تتجه أمته نحو مناهل النور، ومنابع القوة ولا تعيش فى ظل التخلف والجمود فيقول فيما قال من أحاديث:

* «العلماء ورثة الأنبياء».

* «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

* «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة».

ويعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام كيف نعرف الله عن طريق العبادة.. وكيف نعرف الناس عن طريق ما شرعه كتاب الله من حقوق وواجبات، ومن المعاملات: من إرث وزواج وعلاقات اجتماعية، فى ظل مجتمع أساسه الشورى، والشورى ضدد الاستبداد

والقهر والطغيان الأقوى، ثم يفتح المجال على مصراعيه للاجتهاد، حتى تظل الدعوة الإسلامية صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان.

فعندما بعث الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام معاذ بن جبل إلى اليمن قال له:

«كيف تصنع إذا عرض عليك قضاء؟»

قال: أقضى بما فى كتاب الله.

قال: «فإن لم تجد؟»

قال: فسنة رسول الله ﷺ.

قال: «فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟»

قال: أجتهد رأيى ولا آلوا.

قال: فضرب بيده فى صدرى وقال: «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله».

والفكر الإسلامى فكر رحب، فقد انتشر بسرعة الضوء شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، يعطى للشعوب التى دخلته نور الإيمان ونور العقل ويأخذ من الحضارات الأخرى ما لا يتنافى مع أصوله وقواعده، فاتسعت رؤية المسلمين، ونهضوا نهضة رائعة.

وإذا كان الدين الخاتم قد رسم طريق المسلم لمعرفة دينه معرفة مستنيرة بلا غلو ولا تطرف، ورسم زوايا المجتمع الإسلامى بما فيه

من قيم دينية واجتماعية وعقلية، فقد نظم الإسلام العلاقة الأسرية على أكمل وجه، فقد رفع المرأة إلى مكانة لم تصل إليها فى أحدث القوانين الوضعية، ولم تعد المرأة ينظر إليها على أنها شىء هامشى لا كيان له، ولكن أعطى الإسلام للمرأة حقوق الرجل نفسها، وجعل الزواج نعمة من نعم الله على عباده.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

وأصبح للمرأة فى ظل الإسلام شخصيتها المستقلة، فهى حرة فى العمل وإدارة مالها:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢].

بل إن القرآن الكريم وهو يدعم الأسرة وضرورة الحفاظ عليها يرى أن أبغض الحلال عند الله الطلاق، فإذا استحالت العشرة وكان لابد من الانفصال فإن ذلك يكون بالحسنى، وألا تنكر حقوق المرأة، والقرآن يقرر ذلك بقوله:

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

وإذا تعسرت العشرة يقرر ضرورة العمل على الصلح، بأن يرسل كل طرف حكمًا حتى تحل صعوبات الزواج، فإذا استحالت كل هذه

المحاولات ولا مناص من الطلاق.. فعلى الطرفين مراعاة أوامر الله تعالى:

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

وإذا كانت هذه هى صورة المرأة فى مرآة الإسلام، فإن المقارنة مع وضعها فى الديانات السابقة تكون مقارنة ظالمة، لأنه كان ينظر إليها على أنها فى وضع أدنى من وضع الرجل، وأنها خلقت من أجل الرجل، ولم يخلق الرجل من أجلها!

ولنقف مثلاً عند ما أورده الأستاذ أحمد طاهر فى كتابه (الأناجيل دراسة مقارنة):

(والواقع أن عيسى لم يقل ولم يفعل شيئًا ليقلب شريعة موسى، خاصة بالنسبة لقوانين الحرب والقتال، وتعديل نظام الرق فى الأخذ بيد المرأة ورفع منزلتها فى المجتمع، كما أنه لم يفعل شيئًا عن تعدد الزوجات، وكان هذا التعدد مباحًا إباحة مطلقة وبدون حدود فى أيامه، وفى عهد المسيحية الأولى، بل كان مباحًا بين المسيحية فى مصر العليا حتى مائة سنة مضت).

وكان (بولس) الذى يعتبر بحق مؤسس المسيحية كما فهمها المسيحيون ويعتنقونها يرى المرأة مجرد متعة وفتنة، بل أنزل اللوم كله

لسقوط الإنسان وتدهور الخليقة واقتران المعصية، وإليكم ما نقرأه فى رسالة بولس الأولى إلى (تيموتاوس) إصحاح ٢ فقرة ١١ ـ ١٥:

(لتعلم المرأة وهى ساكنة خاضعة، وأنا لا آذن للمرأة أن تتعلم أو تتولى مركزًا ذا مسئولية فتسلط فيه على الرجل، بل يجب أن تكون مذعنة صامتة، فآدم خلق أولاً وبعده خلقت حواء ولم تدخل الغفلة على آدم، بل أدخلت على المرأة وأمكن غوايتها ولم تتخلص منها إلا بحملها الأطفال وولادتهم إذا ما ثبتت المرأة فى إيمانها ومحبتها والتزامها بالعقل).

وجاء فى رسالة بولس الأولى إلى أهل (كورنثوس) إصحاح ١١ فقرة ٧ ـ ١٠:

(لا ينبغى للرجل أن يغطى رأسه فهو صورة من الله ومن يجده، ولم يخلق الرجل من المرأة بل خلقت المرأة من الرجل، ولا خلق الرجل من أجل المرأة بل خلقت المرأة من أجل الرجل، ولهذا السبب لا يجب أن تمثل المرأة مركزًا ذا مسئولية) الترجمة عن الإنجليزية.

ويورد بعض ما قاله من يعرفون فى المسيحية بالقديسين عن المرأة:

قال القديس (يوحنا الدمشقى): (المرأة هى نتاج الكذب والموبقات، وهى الحارسة على أبواب جهنم.. عدوة السلام فبسببها فقد آدم الجنة).

وقال القديس (سبريان) فى المرأة:

(المرأة هى الوسيلة التى يستخدمها الشيطان لتمتلك أرواحنا).

وقال القديس (أنطونيوس):

(المرأة هى ذراع الشيطان وصوتها فحيح الأفعى).

وقال القديس (جريجورى) العظيم:

(المرأة تنفث السم كالثعبان، والحقد كالتنين).

كانت النظرة للمرأة نظرة مهينة لها ولإنسانيتها.. على عكس الإسلام الذى يرى فى المرأة مخلوقًا كريمًا مسئولاً عن نفسه، ومسئولاً عن أولادها، لا تفرقة اطلاقًا بينها وبين الرجل ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)**﴾ [النساء: ٧].

وما أكثر آيات القرآن الكريم التى تقرر حقيقة تكريم المرأة ونديتها للرجل فى كل الأمور، إلا ما تختلف فى طبيعة كل منهما عن الآخر:

﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)**﴾ [التوبة: ٧١].

فكل هذه القيم والفضائل التى نادى بها الإسلام جعلته الدين

الخاتم الذى يصلح به أمر الإنسان فى دنياه وآخراه، ويكفى أنه أزال غشاوة الجاهلية بأن رفع من عقل الإنسان وجعله لا يستذل لآلهة من جماد صماء، إذ يخضع لتقاليد لا تتفق مع جلال العقل الإنسانى.

بل إن الإسلام كرم الإنسان إذ جاء بكل الوسائل التى تقضى على الرق.. فعتق الرقيق كان مما يُتقرَّب به إلى الله.. وإذا أنجبت الأمة من سيدها أصبحت حرة، وأولادها أحرارًا، بل فى إمكان العبد أن يكاتب سيده حتى يستطيع أن يتحرر من الرق، وبجانب كل هذه القيم الرفيعة التى جاءت فى الإسلام فقد احترام الحرية الإنسانية، فلا إكراه فى الدخول فى الإسلام:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس: ٩٩].

وكانت مبادئ الإسلام كما جاءت فى الكتاب والسنة مطبقة تطبيقًا عمليًا فى ظل النبوة والخلافة الراشدة، ومن هنا فقد انتشر الإسلام بعد أن اقتنعت به العقول فتربع على عرش القلوب.. وامتد نفوذه فيما بين الصين حتى الأندلس.. وهذه التعاليم الرائعة التى جاء بها الإسلام ما كان يمكن أن يقف فى سبيل انتشارها عائق.

لا يمكن لعباد الأوثان أن يصمدوا أمام دعوة التوحيد، ولا يمكن لأصحاب الديانات التى حُرفت أن تعوق هذا الدين الخاتم نفسه

سوف يجد فيه وفى سلوكياته التجسيد الحى للقرآن الكريم.

لقد رأى الناس رسول الله ﷺ على هيبته وجلال شخصيته يعيش كواحد منهم.. يعيش على الكفاف، وما أكثر الأوقات التى كان لا يوجد فى بيت الرسول ما يطعم به أهله، حتى لقد قالت أم المؤمنين عائشة:

(كان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال ولا يوقد ببيت رسول الله نار!) إنه الزاهد العظيم الذى قال:

«كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

ولا يمكن لمن يشعر أنه غريب فى الدنيا، أو عابر سبيل أن يتجبر ويطغى ويعيث فى الأرض الفساد، ولا يمكن لإنسان يؤمن بأنه غريب أو عابر سبيل أن يكنز الذهب والفضة والأموال ولا يصرفها فى الوجوه التى حددها شرع الله.. ففيها حق معلوم للسائل والمحروم.

ولا يوجد إنسان يؤمن بأنه غريب وعابر سبيل فى الدنيا إلا ويحاول أن يتقرب إلى الله بأحسن الأعمال ويلين جناحه للمؤمنين.

لقد جاء إلى رسول الله من خراج اليمن تسعون ألف درهم، فما قام من مجلسه إلا بعد أن أعطى من هذا المال لكل صاحب حق فيه حقه، ولم يأخذ لنفسه شيئا.

وعائشة رضى الله عنها قالت عنه:

(لم يمتلئ جوف النبى ﷺ شبعًا قط، وإنما كان فى أهله لا يسألهم طعامًا ويشتهيه، أن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب).

وتبلغ الرحمة بهذا الرسول العظيم القمة، يوم رأى شيخًا عجوزًا ذهب إلى بيت الله الحرام وقد ظهر الإعياء عليه وقد سار مستندًا على رَجُلين، كان الرجل قد نذر أن يحج إلى بيت الله ماشيًا!

وعندما علم الرسول ذلك قال:

«إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى». وأمره أن يركب.

والنبى العظيم مع زهده وكثرة عبادته، وحبه وأشواقه العظيمة التى يشعر بها عندما يتعبد إلى الله.. كان مع كل ذلك يحب العمل.

ويحث أصحابه على ألا يكون أحد منهم عالة على الآخر.. إنه يقول عليه الصلاة والسلام:

«اليد العليا، خير من اليد السفلى».

ويقول للناس:

«لأن يأخذ أحدكم حبله إلى الجبل، فيأتى بحزمة من الحطب يحملها على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

بل إنه يقول حتى يعرف الناس معنى السعى وراء لقمة العيش وأن الحياة لابد أن تعاش والإنسان فيها عزيز كريم:

«إن من الذنوب ذنوبًا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ويكفرها العمل والغم بالعيال».

والعمل عند الرسول الخاتم لابد أن يقوم به الإنسان وهو يراقب الله فى عمله.. فلا روتين.. ولا تعذيب لعباد الله.. وكل هذا يندرج تحت واجب المسئولية للعامل وعليه أن يتقن عمله، واتقان العمل هو أن يتقنه على أكمل وجه بما يرضى الله ويرضى الضمير.. إنه يقول:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

وقد ركز عليه الصلاة والسلام على أهمية سيادة العدل.. حتى يشعر الناس جميعًا بالأمن.. فلا أمن مع ظلم.. ولا أمن مع طغيان.. ولا أمن مع فقر.

وعلى المجتمع ألا يعيش أى فرد من أفراده وهو يشعر بوطأة هذا الظلم عليه.

وفى ظل مجتمع الإسلام لابد أن يسود العدل دون النظر إلى طبقات الناس، فالكل أمام القانون الإسلامى سواء، لا فرق بين غنى وفقير، أو قوى وضعيف وصاحب سلطان ومن لا سلطان له. وما كان رسول أبدًا يرضى أن يتدخل أحد فى حد من حدود الله وهو القائل: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف منهم تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد... وايم الله لو أن

فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

ومع كل ما اتصف به من سمات الرجولة والنبل والفضائل كان أكثر الناس تواضعًا، وقد قال لرجل شعر بهيبته عندما رآه:

«هوِّن عليك، إننى ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة».

لقد زرع الرسول فى قلوب أصحابه الرحمة والعدل.. وعلَّم أصحابه ألا يقنطوا من رحمة الله، فالله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، لقد سمع الناس منه قوله عليه الصلاة والسلام:

«إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخَّر منها تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

«ولو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن النار».

وهو مع أنه النبى المعصوم كان شديد الخوف من الله وكان يقول:

«إنى لنبى الله ورسوله، وما أدرى ما يفعل الله بى!».

وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وقد سمع يومًا ابن مسعود وهو يتلو قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]

فإذا بالدموع تسيل من عينيه!

هذه بعض المواقف من مواقفه.. وما أكثرها.. ولا يكفى للحديث عنها عشرات المجلدات.. ولكن هذا مجرد إشارة أصبع -كما قلت- لسجايا لا يمكن إلا أن تكون للنبى عليه الصلاة والسلام.. هذا النبى الذى هيأه الله ليكون المبلغ لأعظم رسالات السماء.

ولنقف عند بعض خُطبه لنرى كم فيها من البلاغة والفصاحة وجمال الكلمات، وروعة الأداء.. وأنها مشحونة بشحنة رائعة من جوهر الإسلام.. إن الإنسان ليقف طويلاً.. أمام روعة الكلمات ومغزاها.. يقول فى أحد خطبه:

«أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. فإن العبد بين مخافتين: أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل به، وأجل بقى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه.

فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات.

فوالذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

لقد أدى الرسول الأعظم الرسالة على أكمل وجه، وبعد ثلاثة وعشرين عامًا من الجهاد فى سبيل الله، انتشرت الرسالة فى كل أنحاء الجزيرة العربية، وكان قد مهد عليه الصلاة والسلام لخلفائه أن ينشروا نور الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها عندما أمر بمجابهة الروم فى مؤته، ثم اتجاهه بنفسه لملاقاتهم فى (تبوك) ولكن لم يجرأ الروم على تلك المواجهة وآثروا الصلح.

بعد ثلاثة وعشرين عامًا من النضال والجهاد والصبر الذى لا طاقة لبشر به إلا لمن كان من أولى العزم من الرسل، كان الرسول العظيم يشعر باقتراب الرحيل إلى جوار ربه الأكرم جل شأنه.

فتروى كتب السيرة أنه عندما بعث بمعاذ بن جبل إلى اليمن.. خرج معه يودعه، ودار بينه وبين الرسول حوار، ومعاذ يسمع من الرسول، فإذ به يفاجىء بالرسول الكريم يقول له:

«يا معاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا،ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى!»

وبكى معاذ، وتوجه أعظم الرسل إلى المدينة وقال: «إن أولى الناس بى المتقون، مَن كانوا، وحيث كانوا».

وبعدها حج الرسول عليه الصلاة والسلام حجة الوداع التى خطب فيها خطبته الرائعة التى أوصى فيها المسلمين وعلمهم كيف يؤدون مناسك الحج، وحثهم على ضرورة تجنب الفتن والتمسك بكتاب الله

وسنة الرسول، كما أوصى بالنساء خيرًا. . وأثناء هذه الخطبة نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ﴾ [المائدة: ٣].

وقد شعر بعض الصحابة أن هذه الآية تنعى الرسول عليه الصلاة والسلام، فماذا بعد إتمام الدين، وإكمال الدعوة إلا الرحيل!

ونرى العظمة مجسدة فيه منذ ولادته مرورًا بصباه وشبابه وشيخوخته، إنه حتى وهو يعانى آلام المرض الأخير، وقبيل أن ينتقل إلى جوار ربه، يخرج إلى الناس وهو مريض ويخطب الناس، إنه يريد أن يذهب إلى جوار ربه مطمئن الضمير لم يظلم أحدًا، وليس لأحد عنده دين، فيقول فيما قال فى هذه الخطبة الرائعة:

«أما بعد أيها الناس:

فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، فمن كنت قد جلدت له ظهرًا، فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت قد شتمت له عرضًا فهذا عرضى فليستقد منه. ألا وإن الشحناء ليس من طبعى ولا من شأنى. . ألا وإن أحبكم إلىَّ من أخذ منِّى حقًا إن كان له، أو حلَّلنى فلقيت الله وأنا طيب النفس! وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عنى حتى أقوم فيكم مرارًا».

وصلى بالناس صلاة الظهر، ثم عاد فكرر عليهم ما قال وقال لهم:

«أيها الناس: من كان عنده شىء فليؤده، ولا يقل فضوح الدنيا، ألا إن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة.

أيها الناس: من خشى من نفسه شيئًا فليقم أدعو له».

فقام رجل وقال له:

يا رسول الله، إنى لكذاب، وإنى لمنافق، وما من شىء إلا جنيته.

فقال له الرسول: «اللهم ارزقه صدقًا وإيمانًا وصير أمره إلى خير».

وقام مرة أخرى يقول للناس:

«معاشر الناس قد حان منى حقوق من بين أظهركم، فمن كان له عندى شىء فليأتنى أعطه إياها، ومن كان له على دين فليأتنى أقضه.

أيها الناس إنه ليس بين الله وبين أحد نسب، ولا أمر يؤتيه به خيرًا أو يعزف عنه شرًّا إلا العمل.

ألا لا يدعين مدعٍ ولا يتمنين متمنٍ.

والذى بعثنى بالحق لا ينجى إلا عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت.. اللهم قد بلغت».

واشتد المرض عليه، وانتقل إلى جوار ربه راضيًا مرضيًا، بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة وبذور بدور الإيمان فى القلوب، والروعة فى الصدور، وجعل من هؤلاء العرب الذين كانوا مثالاً للجهل والتخلف والتفرقة أمة واحدة، تدين بدين واحد، وتتجه إلى قبلة واحدة، وتحمل لواء حضارة جديدة، وفكر جديد وثاب، وفلسفة جديدة بثها فيهم هذا الدين الخاتم الذى جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين.

وما أروع تلك الكلمة التى قالها أنس بن مالك:

(لما كان اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ المدينة أضاء فيها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم فيها كل شىء.. وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا ﷺ).

***

وحي الله

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

[الإسراء: ٨٨]



وحى الله

مع كل نبى تأتى معجزة تؤيده، فيراها الناس فيعرفون أن هذه المعجزة ليست فى طاقة بشر، وبالتالى فهى تدل على صدق صاحب الرسالة.

ومن هنا يتعين عليهم الإيمان بهذه الرسالة أو يلقون الجزاء الذى يتوعد به الله الكافرين.

كانت معجزة إبراهيم عليه السلام أن النار التى أُلقى فيها تحولت بالنسبة له بردًا وسلامًا فلم يتعرض لحرق، ولم يصبه أذى، فقد فقدت النار قدرتها على الإحراق، وهذه ضد طبائع الأشياء، ولا يمكن لبشر مهما تكن قدراته أن يحّول النار إلى برد وسلام.

وكانت معجزة موسى عليه السلام هو أن يلقى بعصاه على الأرض فإذا بها تتحول إلى أفعى حقيقية تبتلع ما يتبعه السحرة من إفك عندما يوهمون الناس بأنهم يحولون الحبال إلى أفاعى.

وكانت معجزته الثانية أن يضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء.

وكانت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

وكان لكل نبى معجزته.

ولكن هذه المعجزة مرهونة بزمانها وبمن رآها.

وجاءت معجزة النبى الخاتم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أخلد هذه المعجزات وأبقاها.. إنها معجزة لكل العصور.. إنه القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم بإعجازه وبيانه الذى تحدى الله سبحانه وتعالى به العرب وهم أهل بلاغة وفصاحة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، قرآن يتعبد به ويتلى فى كل العصور.. وهو فى كل عصر مبهر معجز لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.. وهو مع كل ما جاء به من أحاديث حول الكون وما فيه من آيات الله.. لم يصطدم بحقيقة علمية واحدة.. بل إن كل الحقائق العلمية ـ وليست النظريات ـ تتفق مع ما تحدث به القرآن الكريم.. وهو يتحدث عما فى الكون.. كتاب الله المنظور من آيات تدل على عظمة الخالق العظيم.. وعندما تحدث عن النجوم والمسافات الشاسعة بينها مثلا.. أصبحت حقائق علمية، وإن كانت لا تخطر على بال من عاصر عصر النبوة.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥].

وحديث القرآن الكريم عن عسل النحل وكيف أنه شفاء للناس وهذا لم يتعارض أيضًا مع حقائق العلم الحديث.

والرياح وحملها لحبوب اللقاح بين الزهور.. وما أكثر ما كشف عنه القرآن من القرائن التى تحكم المادة، ولم تصطدم أبدًا باكتشافات العلم الحديث.

وفى كل عصر من العصور..ومع كل اكتشافات جديدة يرى أهل هذا العصر الجديد المعجز فى آيات الكتاب المبين.

ورغم أن القرآن الكريم ليس كتاب علم يتحدث عن نظريات علمية، وأنه كتاب تشريع وعبادات وتعريف بأمور الدين، وما ينبغى أن يعرفه المسلم ويلم به عن نفسه وعن علاقاته بمجتمعه.. والقوانين التى ينبغى أن تسود المجتمع الإنسانى حتى يكون مجتمعًا على أعلى مستوى من الرقى الروحى والمادى.. بتوحيده لله وأداء ما فرض عليه وتركه ما نهى عنه.. إلا أن القرآن الكريم هو دستور المؤمن.. الذى من خلاله يعرف ما ينبغى أن يعرفه من أمور دينه ودنياه، بجانب أنه يتعبد بتلاوته.

ويصف الله عز وجل كتابه بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن أن يأتوا بشىء مثله ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وإذا كانت كل معجزة من معجزات الأنبياء السابقين مرتهنة

بعصرها - بعكس القرآن الكريم - وإذا كانت الكتب السابقة على القرآن الكريم كالتوراة والإنجيل قد حُرِّفت، فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم.. فنحن نقرأ القرآن الكريم كما أنزل على رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

والله سبحانه وتعالى يسمى القرآن (روحًا)..وقد أنزله على قلب الرسول الكريم من خلال جبريل عليه السلام:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].

والوحى له أكثر من معنى يوضحه الدكتور الحسينى هاشم.. يبدأ بالبيان للمعنى العام للوحى، ثم يصعد فى سلم الارتقاء ليتحدث عن الوحى القرآنى فيقول:

ومن المعلوم أن المعنى العام بأقسامه العديدة إنما يوجد فى المعنى اللغوى.

والوحى يطلق فى اللغة على مطلق الإعلام غير مقيد ذلك الإعلام بأحد معين يلقيه ولا بمستقبل معين يلقى عليه. كما أنه غير مقيد ذلك الإعلام بطريق معين من طرق المعرفة. كالرمز أو التعريض أو الإلهام أو الكتابة أو الكلام.

ولا يلزم أن يكون ذلك على وجه السرعة أو الخفاء وإن قيل إن الأصل فيه السرعة والخفاء،كما أنه غير مقيد بلون معين من المعرفة من الخير أو الشر، بل يشمل كل ذلك وما من شأنه أن يكون طريقًا للإعلام حتى يكون المعنى اللغوى جامعًا لكل ما تقدم.

* فيكون الوحى من الله سبحانه وتعالى إلى غير العاقل بمعنى الالهام الغريزى، قال الله تعالى:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل: ٦٨].

* ويكون الوحى من الله سبحانه وتعالى إلى البشر على سبيل الإلهام الفطرى الواضح كقوله تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧]

* ويكون من الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة بطريقة تتناسب مع ملائكيتهم كقوله تعالى:

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

* ويكون الوحى من الشياطين إلى أوليائهم الذين هم بعيدون عن

الخير. قال تعالى:

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

* ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا عن الإنس والجن كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

* ويكون الوحى بإشارة وحيه (أى سريعة). وقد حمل على ذلك قوله تعالى فى زكريا:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

أى أشار.

ويكون بالإيماء بالجوارح، ومنه قال الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيرت ... ودقائق فكرى فى بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أنى أحبها ... فأثر ذاك الوحى فى وجناتها

والمعنى اللغوى للوحى يتسع لكل هذه المعانى، وهذا التعميم سمة المعنى اللغوى، ويتفق مع التعريف فى القاموس ولسان العرب كما قالوا وما جاء فى الفتح لابن حجر:

(الوحى الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته على غيرك).

وإذا كان بعض الكُتّاب قد يُعد الإعلام بأنه الخفى السريع فلأن الأصل فيه ذلك، ولكنه أصبح يطلق على مطلق الإعلام، وإلا فالكتابة والكتاب مثلاً لا يتحقق فيهما ذلك.. وأى تحديد لا يجعله يستوعب كل الصور المذكورة.. فالأولى التعميم فى المعنى اللغوى حتى يتسع لكل هذه المعانى وإن اختلفت كيفياتها ومصادرها وأهدافها، فلا عليك أن تسمى كل ذلك وحيا لغويا، ولكنه ليس بالوحى الشرعى أو الحقيقة الشرعية للوحى أو الوحى القرآنى. وهدفنا من هذا العرض أن نتجنب مسألة شائكة وهى الخلط بين المعنى اللغوى والحقيقة الشرعية للوحى، وفى ضوء ذلك تشرق لنا قسمات الوحى القرآنى سافرة المحيا.

***

الوحـى الشرعـى

ويقول الدكتور الحسينى هاشم بعد تحليل معنى الوحى وصولاً إلى الحديث عن الوحى الشرعى:

الوحى فى حقيقته الشرعية (هو إعلام من الله إلى أنبيائه) فلا يكون مصدره إلا من الله العلى العظيم، ولا يتلقاه إلا نبى لرب العالمين.. فهو متميز إرسالاً واستقبالاً وله صفته الخاصة.. وله صور بيّنها القرآن الكريم، وحدد فى النهاية الجلية التى اختارها لوحى كتابه قال جل شأنه:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥١ – ٥٣].

* * *

وواضح من قراءة ما جاء على لسان النبى عليه الصلاة والسلام

والمفسرين أن الوحى كان يأتى على عدة صور:

* فقد يكون بإلقائه فى قلب الرسول - عليه الصلاة والسلام- ويتيقن تمامًا أن ما أوحى إليه من عند الله.

* أو عن طريق جبريل عليه السلام الذى يسميه القرآن الكريم (الروح الأمين).

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وفى بعض الأحيان كان ينزل جبريل على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على شكل بشر مثل ما روى أنه كان ينزل على شكل (دحية الكلبى).

وقد وصف النبى عليه الصلاة والسلام فى أحاديث كثيرة كيف كان ينزل عليه الوحى، وما كان ينتابه فى تلك اللحظات.

سئل الرسول: كيف يأتيك الوحى؟

قال:

«أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىَّ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال.

وأحيانًا يتمثل لى الملك رجلا يكلمنى، فأعى ما يقول».

قالت عائشة رضى الله عنها:

رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقًا.

ومما يروى عن النبى هذه الحادثة الذى تمثل فيها جبريل. أنه جاء على هيئة إنسان شديد بياض الثياب، شديد بياض الوجه.. وأخذ يسأل النبى والنبى يجيب.. لقد جاء ليعلمّ الناس أمور دينهم فيقول الحديث مرفوعًا إلى أبى هريرة:

«كان النبى ﷺ بارزا يوما للناس فأتاه جبريل:

فقال: ما الإيمان؟

قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث.

قال: ما الإسلام؟

قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: متى الساعة؟

قال: ما المسئول بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها:

إذا ولدت الأمة ربتها، وإذا تطاول رعاة الإبل والبهم فى البنيان، فى خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبى ﷺ:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ [لقمان: ٣٤].

ثم أدبر فقال الرسول ﷺ: ردوه فلم يروا شيئًا..

فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

وقد أعجبنى هذا التعريف الجامع المانع حول القرآن الكريم للدكتور محمد عبد المنعم القيعى فى كتابه (عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة).. فيرى أن القرآن المقروء المكتوب فى المصاحف المبتدأ بسورة الفاتحة المنتهى بسورة الناس: كلام الله عز وجل ووحيه أنزله على قلب نبيه محمد ﷺ.

من كفر بحرف منه فهو كافر قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقال تعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وكل الصفات التى وصُف بها القرآن ترجع إلى كونه قرآنًا أى جامعًا على الحق.

وفرقانًا: أى مفرقًا بين الحق والباطل.

وقد وصف القرآن بالكلام، لأنه من أجل النعم.

ووصف بالعظمة، نظرًا لحقيقته الذاتية.

ووصف بالحكمة؛ لأن العبد يترقى بالقرآن فيتجلى له الحق. وهذا القرآن اسم للفظه ومعناه.

وكل ما فيه من خبر عن نبى من الأنبياء، أو رسول أو عذاب أو نعيم أو غير ذلك فهو على حق على ظاهره لا رمز فى شىء منه.

قال تعالى:

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

فالقرآن الكريم جامع للأصول، ومبين لبعض الفروع. وفى السنة النبوية بيان لباقى الفروع كما قال لنبيه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فالقرآن أصل الدين، والمصدر الأول له، وتأتى بعد ذلك السنة، ثم الإجماع، وما عدا هذه المصادر يستأنس بها، كالقياس، والاستصحاب، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة وأعمالهم، والعرف، وغير ذلك مما يرتضيه المسلمون المتفقون على ما يرضونه، ولا سر فى الدين عند أحد استؤثر به عنده، وادعاء هذا زور وبهتان، وتقول بغير علم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

مع القرآن الكريم

وهكذا نعرف أن معجزة الإسلام الكبرى لكل العصور هذا القرآن الكريم الذى نزل منجمًا على آخر رسل الله عليه الصلاة والسلام على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.. حتى يمكن الناس من استيعاب ما جاء به القرآن الكريم. وحتى يصل إلى قلوبهم وعقولهم من خلال قراءتهم له وسماعه من الرسول والصحابة الذين كانوا يكتبونه ويحفظونه من أمثال علىّ وعثمان وزيد بن ثابت وأبىٍّ بن كعب.

كما أن نصوص القرآن قد حفظها الله تعالى، فقد رتب القرآن الكريم بوحى من الله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ويقول جل شأنه أيضا:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) ﴾ [القيامة: ١٧].

لقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام منذ أن جاءه وحى السماء، وهو يعمل على نشر الإسلام على ضوء الوحى.. وجاهد فى ذلك جهادًا يفوق طاقة البشر.. صبر على جهل الكفار وعبثهم، وصبر

وهو يبلغ الناس تعاليم لم يألفوها فى جاهليتهم، فلم تكن عقولهم تستوعب هذه التعاليم الإسلامية التى تجعل الناس جميعًا أمام الله سواء.. لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى.. لا المال.. ولا الجاه.. ولا النسب ولا الحسب يرفع درجة إنسان على آخر لا يملك المال ولا الجاه ولا الحسب والنسب. .إنما يقياس إيمان الإنسان بالقرب أو البعد من الله.. القريب من الله هو التقى والبعيد عنه هو الذى لا يعرف حدود ما أحل الله وما حرم، ويتبع الحرام ويتجنب الحلال.

ولم تكن عقولهم التى عششت فيها روح القبلية وتراكمت عليها عادات وتقاليد الجاهلية بقادرة على أن تستوعب أن الناس سواسية، وأن العدل لابد أن يسود وأن المظالم من الحرمات، وأن الزنا وقتل النفس يخضع للحدود التى شرعها الله.

لم يستوعبوا كل هذه الأمور إلا بعد حروب طاحنة بينهم وبين المسلمين، وعندما انتهى الصراع وحسم لصالح المسلمين، أصبحت شبه الجزيرة العربية المفككة المتخاصمة المتناحرة.. يجمعها دين واحد، وعقيدة واحدة، فإذا بتلك القبائل المتهالكة التى تخشى من القوى العظمى التى أخضعت العالم لهيمنتها كالفرس والروم من أقوى المجتمعات.

وعندما توحد هؤلاء العرب وجمعتهم عقيدة الإسلام أصبح لهم حضارة انبثقت عن هذا الدين الجديد الذى جعل لهم دستورًا وقانونًا متمثلاً بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذب من عاداتهم

وتقاليدهم.. وأعطى لهم المثل العليا التى كان عليهم أن يحققوها، وغرس فيهم قيم الإسلام ومبادئه.

وعندما تحقق كل ذلك أصبحوا قوة عظمى استطاعوا أن يتغلبوا على الفرس والروم فى زمن قصير.. وسادت الحضارة الإسلامية، وغزت القلوب والعقول، وانتشرت بسرعة البرق فيما بين الصين والأندلس، ووصل المد الإسلامى حتى شواطئ الأطلنطى.

وإذا كان القرآن الكريم وهو دستور الإسلام الخالد كان يحفظه البعض فى صدره، فقد خشى عمر بن الخطاب رضى الله عنه - بعد انتقال أعظم رسل الله إلى الرفيق الأعلى - على ضياع القرآن الكريم، وخاصة عندما وجد أن عددًا كبيرًا من حفاظه قد استشهد فى حروب الردة فى يوم اليمامة فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق، فقد أشار عَلَى أبى بكر بضرورة جمع القرآن الكريم وقال له: إن أصحاب رسول الله يتهافتون فى المعارك وإنى أخشى أن تأتى عليهم وهم حملة القرآن فيضيع وينسى، فلو جمعته.

وظل عمر يحدث الصدِّيق فى هذا الأمر حتى شرح الله صدره لذلك واقتنع بضرورة جمع القرآن، فعهد إلى زيد بن ثابت ـ أحد كتاب الوحى ـ بجمعه، وقام الرجل بمهمته خير قيام، حيث جمع القرآن المكتوب من العسب، واستعان بحفظته من الصحابة الأبرار أمثال عثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب، وطلحة، وحذيفة وأبى هريرة وأبى الدرداء، وأبى موسى الأشعرى، وقد أمره

الصديق أن يستشهد بشاهدين على صحة ما يكتب، بأنهما شهدا الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يملى كلام الله الذى سوف يدونه ثابت.

وكان هذا من أعظم أعمال الصديق، فقد احتفظ بالقرآن الكريم المجموع كاملاً فى بيته، ثم احتفظ به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم احتفظت به بعد ذلك ابنته حفصة أم المؤمنين.

وعندما أخذت الجيوش الإسلامية تزحف فى كل اتجاه ناشرة دين الإسلام، وتوغلت الجيوش الإسلامية فى أرمينية وأذربيجان.. وكان الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان فى هذه الحملة، فلاحظ اختلاف الناس فى بعض أداء القرآن الكريم، ففزع من ذلك وخشى على قراءة القرآن بأداء يبعده عن معانيه، وليس هناك مصحف يرجع إليه، فالمصحف الذى جمعه الصديق عنده فى المدينة.. فذهب حذيفة إلى عثمان قائلا:

ـ إن الناس قد اختلفوا فى القرآن حتى إنى لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف.

وكان من أعظم إنجازات عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه عندما سمع ذلك صمم أن يكتب القرآن الكريم بلسان قريش، وأن يكون هذا المصحف إمامًا للمسلمين فى كل أقطار العالم الإسلامى.. فقد أخذ المصحف الذى جمعه الصديق من حفصة لنسخه.

وأمر جماعة من خيرة الصحابة بكتابة المصحف الشريف.. ومنهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال عن عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن وسعيد، إن حدث اختلاف بينهم وبين زيد فى كتابة شىء من القرآن الكريم، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم.

وعندما تمت كتابة القرآن الكريم، أعاد إلى أم المؤمنين حفصة المصحف الذى جمعه الصديق، ثم أرسل مصحفه إلى الأقطار الإسلامية حتى يقرأه الناس على حَرْفِها.. وأمر بحرق ما سواها.. لقد أرسل مصحفه إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وباقى الأقطار.

ومع أن القُراء التزموا بالقراءة كما جاء فى مصحف عثمان رضى الله عنه، إلا أنه حدث بعض الفروق فى القراءة داخل ذلك الحرف.. وقد أجمع المسلمون على سبع منها وهى قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبى عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائى.

* * *

وحول سور القرآن وتفسيره فى العهد الأول يحدثنا الدكتور شوقى ضيف وهو يتحدث عن تاريخ الأدب العربى:

إن عدد سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولا وقصرًا، وتتضمن السورة طائفة من الآيات، وهى تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف (٦٢١٤ آية) وقد قسمت تسهيلا لتلاوته إلى

ثلاثين جزءًا. وكل جزء ينقسم إلى حزبين، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع. وهى أقسام لتيسير التلاوة والحفظ، وقد نزل كثير من السور بمكة، ومن ثم كانت السور إما مكية وإما مدنية نسبة إلى المدينة، ومعروف أن رسول الله ﷺ ظل بمكة داعيًا إلى الدين الحنيف ثلاثة عشر عامًا، انتقل بعدها إلى المدينة، حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبَّى نداء ربه، على أن بعض السور تمتزج فيها آيات مكية بأخرى مدنية، بتوفيق من الله جل جلاله، وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه.

والسور المدنية بصفة عامة طويلة، وهى لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب، بل تختلف أيضًا فى المعانى التى تدور عليها.

فالسور المكية تخوض غالبًا فى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونبذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب.. فمن عمل صالحًا فله الجنة والنعيم، ومن عمل سيئًا فله النار والجحيم.

وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر فى خلق السموات والأرض، فإن من يتدبر فى هذا الخلق يعرف أنه لابد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه.

أما السور المدنية فيكثر فيها القول فى العمل الصالح الذى ينبغى

على المسلم أن يقوم به، ومن ثم يكثر فيها التشريع الدينى، وكذلك التشريع الاجتماعى بكل ما يتصل به من نظم الأسرة، كالميراث والزواج والطلاق، وبر الوالدين ونظم المجتمع، كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم، وفى تضاعيف ذلك تُذْكر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية.

ويقول الدكتور شوقى ضيف أيضًا:

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على النبى ﷺ إلى تفسير بعض آياته، كان الصحابة يرجعون إليه ليفسر لهم بعض ما يتوقفون فيه، وكان هو أحيانًا يبادر فيبين لهم بعض الآيات، ويقول جلَّ ذكره:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ويقول:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمرًا ونهيًا، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه.

وتدل الآية الثانية على أن فى القرآن آيات تحتاج إلى تأويل، وهى تصرح بذلك فى وضوح.

وفى مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود:

(كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن).

ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه يُسمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسروا للناس آى الذكر الحكيم، وهم الذى يسميهم الله عز وجل باسم الراسخين فى العلم.

ويحدثنا السيوطى فى كتابه (الاتقان) أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبى ﷺ والصحابة، وأن يدونها فى كتاب له بعنوان (ترجمان القرآن).. وقد اختصره فى كتاب طبع فى ستة أجزاء سماه (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور)، ويقول أنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود، وأبىٌّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبدالله بن الزبير وابن عباس.

والقرآن الكريم يتعبد بتلاوته، وفيه أحكام الحلال والحرام، وبما أنه قد جُمع بلهجة قريش، فقد سادت هذه اللهجة وأصبحت هى أساس اللغة الفصحى التى يرددها الناس عبر القرون وفى كل بلاد الإسلام.. وبذلك استطاع القرآن الكريم أن يوحد اللغة الفصحى،

ويحافظ عليها فى كل العصور، فلم تندثر هذه اللغة كما اندثرت من قبل اللغة اللاتينية واليونانية القديمة، وغيرها من لغات العالم، بل ظلت اللغة العربية بفضل القرآن الكريم لغة جادة قوية، تستوعب كل العلوم وتثرى الحياة الأدبية والفنية والثقافية، وأصبحت لها قدرة هائلة على امتصاص كل ما فى الحضارات من أفكار، بل أصبح لدى العربية القدرة على تعريب الألفاظ الأجنبية دون أن تفقد العربية رصيدها اللغوى الخالد الممتاز الذى حفظه القرآن فى كل عصور ولكل العصور.

واستطاع القرآن الكريم الذى رفع راية الإسلام والعربية من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطى أن يجعل المسلمين سادة الدنيا يوم تمسكوا بتعاليمه ومبادئه، فقد حثهم على قراءة كتاب الكون بالدرجة نفسها الذى يجب أن يتبصر فيها المسلم بكتاب الله، فانتشر العلم، وبزغت شمس الحضارة. . وأصبحت العرب الرحّل قادة الدنيا فى العلوم، وأصبحت حضاراتهم وفكرهم الرفيع مطمحًا، ونقلوا الفلسفة اليونانية وشرحوها وأضافوا إليها، وعنهم أخذتها أوربا، فكان العرب بمثابة النور الذى أضاء أوربا فى عصورها المظلمة.

ومن هنا لم يكن غريبًا أن يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن الفلسفة القرآنية:

(فى هذا العصر الذى تتصارع فيه معانى الحياة بين الإيمان والتعطيل، وبين الروح والمادة، وبين الأمل والقنوط، تلوذ الجماعات

الإسلامية بعقيدتها المثلى ولا تخطئ الملاذ، لأنها عقيدة تعطيها كل ما يعطيه الدين من خير، ولا تحرمها شيئًا من خيرات العلم والحضارة).

وما أعظم كنوز القرآن الكريم الذى أوحى به الله سبحانه وتعالى عن النبى الخاتم الذى جاء بالرسالة الخالدة.

وقد كان الرسول العظيم يحب أن يسمع القرآن من غيره فقد قال مرة لابن مسعود:

«اقرأ علىَّ سورة من القرآن».

فقال ابن مسعود:

ـ أأقرأ عليك يا رسول الله وعليك أنزل؟

قال النبى ﷺ:

ـ «إنى أحب أن أسمعه من غيرى».

فقرأ ابن مسعود (سورة النساء) حتى إذا بلغ قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

قال النبى ﷺ: «أمسك».

وعندما نظر ابن مسعود إلى وجه النبى رآه يزرف الدموع.

وما أعظم حديث الرسول عن القرآن الكريم:

«فيه نبأ ما قبلكم.. وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو

الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه.. من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

***

السنة النبوية

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

[المائدة: ٦٧]

«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»

[حديث شريف]

السنة النبوية

إذا كان القرآن هو دستور الإسلام الخالد، الذى رسم للمسلمين أمور دينهم من عقيدة وعبادات وشريعة، فإن السنة النبوية هى الشارحة للقرآن الكريم والمكملة له.

والسنة فى اللغة تعنى الطريقة، حسنة كانت أم سيئة، لقوله عليه الصلاة والسلام:

«من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ولكن المسلمين اصطلحوا على أن تكون السنة هى الطريقة التى طبق فيها الرسول والصحابة ما جاء فى كتاب الله عز وجل.

وقد أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يحتكم المسلمون إلى الكتاب والسنة حتى يتجنبوا الطريق الذى يؤدى إلى ما فيه ضرر بالمسلمين.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله».

وقال أيضًا:

«عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى».

وإذا كان التمسك بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام فى غاية الأهمية، ولا غنى عنه لفهم ديننا الحنيف، فقد حذرنا النبى من الذين يُدخلون فى الدين ما ليس فيه، وينشرون البدع، وقد نهانا النبى عليه الصلاة والسلام عن تلك البدع والأخذ بها بقوله:

«من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد».

وعلماء الأصول يرون أن السنة هى ما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام من أقوال أو أفعال، وبالتالى فهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم.

ويحدثنا الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق عن السنة فى اصطلاح الفقهاء فيرى أنه إذا كانت كلمة السنة عند علماء الأصول هى ما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام من أقوال أو أفعال أو تعزيرات، فقد أخذت عند الفقهاء معنى آخر، هو الصفة الشرعية للفعل المطلوب غير حازم، بحيث يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه.

ويوضح الفرق بين اصطلاح الأصوليين واصطلاح الفقهاء.. أنها عند الأصوليين اسم لدليل من أدلة الأحكام، فيقال: هذا الحكم ثبت بالسنة أى لا بالقرآن، أما عند الفقهاء فهى: حكم شرعى يثبت للفعل

بهذا الدليل فيقال: هذا الفعل سنة، أو حكمه السنية، أى ليس فرضًا ولا واجبًا، فهى على هذا حكم من الأحكام لا دليل من الأدلة، وهو يرى أن معناها عند الحديث عن مصادر الشريعة لا يراد منها سوى اصطلاح الأصوليين، لأنها بهذا الاصطلاح هى التى اتخذها العلماء مصدرًا من مصادر التشريع، ودليلاً من أدلة الفقه، يستنبطون منها الأحكام ويرجعون إليها فى فهم القرآن.

وقد حاول البعض أن يثبت أنه يكفى كتاب الله، لأن فيه كل شيء، وأن الرسول لم يأمر بتدوين الأحاديث، ولكن هؤلاء لم يفهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، لأن القرآن الكريم نفسه يحث المسلمين على الأخذ بما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ويقول أيضًا:

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التى ترشدنا إلى أن السنة مكملة وشارحة لما جاء فى القرآن الكريم.

ويفرق الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت بين القرآن والسنة وأثرهما فى كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة) فيجعل الفروق

بينهما فيما يأتى:

أولا: القرآن قد اتخذ له الرسول ﷺ كتابًا يكتبونه ويرتبونه بآياته وسوره حسب ما أمر به من الله، بينما السنة لم يتخذ لها كتابًا، ولم يكتب منها إلا القليل،بل ورد كما تقدم النهى عن كتابتها اكتفاء بحفظها فى الصدور.

ثانيًا: القرآن نقل إلينا بالتواتر حفظًا وكتابة بينما السنة قد نقلت فى معظمها بطرق الآحاد ولم يتواتر منها إلا القليل.

ثالثًا: القرآن لم ينقل منه شىء بالمعنى وذلك ممنوع فيه منعًا باتًا، بينما السنة قد أبيح فيها ذلك. ونقل كثير منها بالمعنى ولا يخفى تفاوت الناس فى فهم المعنى وأسلوب التعبير والنقل.

رابعًا: كان الأصحاب يراجعون النبى ﷺ عند اختلافهم فى حرف من القرآن. وكان يحكم بينهم فيه. إما بتعيين إحدى القراءتين أو بإجازتهما.. بينما السنة لم يعهد فيها شىء من ذلك.

أثر تلك الفروق: وقد كانت هذه الفروق أصلاً فى انحصار مصدر العقيدة فى القرآن وعدم الاعتماد فى ثبوتها على السنة. وكانت فى الوقت نفسه سببًا عظيمًا فى اتساع نطاق الخلاف فى دائرة السنة أكثر منه فى دائرة القرآن فإن الخلاف فيها تناولها من جهة الثبوت ومن جهة الدلالة ومن جهة المعارض لها منها أو من غيرها.

بينما القرآن لم يتناوله خلاف إلا فيما يختص بجهة الدلالة أو

بجهة المعارض له منه إن وجد، وسيتضح هذا حين نذكر أسباب الخلاف بين العلماء فى فقه القرآن والسنة.

ويتحدث عن السنة تشريع وغير تشريع فيقول:

ينبغى أن يلاحظ أن كل ما ورد عن النبى ﷺ ودون فى كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته على أقسام:

أحدها: ما سبيله سبيل الحاجة البشرية كالأكل والشرب والنوم والمشى والتزاور والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية والشفاعة والمساومة فى البيع والشراء.

ثانيها: ما سبيله التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية كالذى ورد فى شئون الزراعة والطب وطول اللباس وقصره.

ثالثها: ما سبيله التدبير الإنسانى أخذًا من الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش على الموقع الحربى، وتنظيم الصفوف فى الموقعة الواحدة والكمون والكر والفر، واختيار أماكن النزول وما إلى ذلك مما يعتمد على وحى الظروف والدربة الخاصة.

(وكل ما نقل عن هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعًا يتعلق به طلب الفعل أو الترك، وإنما هو من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعًا ولا مصدر تشريع).

* * *

ودارس السيرة النبوية يعرف أن النبى عليه الصلاة والسلام له أحاديث بوحى من الله تعالى، وأن له أحاديث تعتمد على رأيه.. أى أن أحاديث الرسول ﷺ إما أن تكون وحيًا وإما أن تكون رأيًا.

ويدل على ذلك عندما جاءت مكة لتحارب الرسول عليه الصلاة والسلام وهى تعتقد أنها سوف تقضى على الإسلام والمسلمين وقابلهم الرسول بالقرب من (بئر بدر).. وقد شاهد الرسول كثرة عدد أعدائه وصلفهم وغرورهم واعتدادهم بكثرتهم، حتى أنه قال داعيًا ربه وهو يرى أصحابه فى قلتهم وقلة عتادهم، وهم لا يملكون إلا شجاعة الإيمان:

«اللهم إنهم حفاة فاحملهم،

اللهم إنهم عراة فاكسهم،

اللهم إنهم جياع فأشبعهم».

لقد نزل الرسول بالقرب من ماء بدر.. وهنا تقدم إليه الحباب بن المنذر وقال له:

- يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة».

وعندما علم الحباب أن المسألة مسألة رأى وليس وحى، أوضح

وجهة نظره للرسول قائلا:

(يا رسول الله ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فإنى أعرف غزارة مائه، وكثرته، فننزله وتغوِّر ما عداه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون).

فقال الرسول ﷺ:

«لقد أشرت بالرأى».

واختار المسلمون مكان المعركة.

وقال سعد بن معاذ للرسول عليه الصلاة والسلام:

(يا نبى الله ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عنده ركائبك ثم نلقى عَدوَّنا، فإن أعزّنا الله، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنك أقوام - يا رسول الله - ما نحن بأشد حبًا لك منهم.. ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك.. يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك).

وقد أثنى عليه النبى ﷺ ودعا له بخير.

وهذا يدل على أن النبى كان يشاور قومه فيما ليس فيه وحى ملزم. وأنه كانت له آراء يعرضها على قومه ويشاركهم ويشاركونه الرأى.

وعقب هذه المعركة الذى انتصر فيها المسلمون انتصارًا رائعًا على أعدائهم، فقد قتل من المشركين سبعون رجلاً، واستطاع المسلمون أن يأسروا سبعين رجلاً. .برز سؤال حول مصير الأسرى أيقتلون أم يفدى عنهم، فقال أبو بكر الصديق:

- يا رسول الله. . قومك وأهلك استبقهم واستنبهم لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر بن الخطاب:

- يا رسول الله أخرجوك وكذبوك! مر بهم فأضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة الأنصارى:

- يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم اضرمه عليهم نارًا!

لقد اختلفت الآراء حول مصير الأسرى، وانتظر الناس ما يقوله النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام. . فإذا بهم يستمعون إليه يقول:

«إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله لَيُشدِّد قُلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة.

أنتم فقراء، فلا يَبْقَينَّ أحد من الأسرى إلا بضربة عنق أو فداء.

وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم حين قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وإن مثلك يا عمر مثل نوح حين قال:

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقبل الرسول الفداء.

ولكن جاء وحى السماء مؤيدًا رأى عمر:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

إذن الصحابة قد عرفوا وفرقوا بين ما هو رأى للرسول عليه الصلاة والسلام، وبين ما هو وحى للرسول، سواء أكان هذا الوحى قرآنًا أم إلهامًا للرسول.

ويقول الدكتور محمد الأحمدى أبو النور فى كتابه (شذرات من علوم السنة) وهو يعلق على الاختلاف حول أسرى بدر.

(فلو كان ما صدر عن النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه المشاورة وحيًا ما عاتبه الله عز وجل.

بيد أن الله تعالى عاتبه، فثبت أن كان اجتهادًا اجتهده ورأيًا ارتآه.

غير أن النبى - عليه السلام - فيما يراه أو يجتهد فيه ليس كأى منا فيما يراه أو يجتهد فيه.

إن الله تعالى يخصه بالمتابعة بالوحى، فما كان صوابًا أقره، وما

كان غير ذلك عاتبه فيه، كما حدث فى هذه القضية (أسارى بدر).

وإقرار الله لنبيه عليه السلام فى شىء يجعل لهذا الشىء حكم الوحى فى إيجاب اقتدائنا به واتباعنا له.

وإذن فنحن نستطيع أن نقول: إن ما تحدث به النبى ﷺ فيما عدا ما عوتب فيه إما أن يكون وحيًا صريحًا أو وحيًا حكمًا، وكله يجب الصدور عنه، والأخذ به، على ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧].

وقوله تعالى:

﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)** ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ونعود إلى الشيخ محمود شلتوت وهو يحدثنا فى السنة (تشريع عام وخاص) فيرى ما كان سبيله التشريع وهو على أقسام:

أولا: ما يصدر عن الرسول ﷺ على وجه التبليغ بصفة أنه رسول، كأن يبين مجملاً فى الكتاب، أو يخصص عامًا، أو يقيد مطلقًا، أو يبين شأنًا فى العبادات، أو الحلال أو الحرام، أو العقائد والأخلاق، أو شيئًا متصلاً بشى مما ذكر.

ثانياً: ما يصدر عنه ﷺ بوصف الإمامة والرياسة العامة لجماعة المسلمين: كبعث الجيوش للقتال، وصرف أموال بيت المال فى

جهاتها، وجمعها من محالها، وتولية القضاة والولاة، وقسمة الغنائم، وعقد المعاهدات وغير ذلك مما هو شأن الإمامة، والتدبير العام لمصلحة الجماعة.

وحكم هذا أنه ليس تشريعًا عامًا، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام، وليس لأحد أن يفعل شيئًا من تلقاء نفسه بحجة أن النبى فعله أو طلبه.

ثالثًا: ما يصدر عنه ﷺ بوصف القضاء، فإنه كان رسولاً يبلغ الأحكام عن ربه، ورئيسًا عامًا للمسلمين ينظم شئونهم ويدير سياستهم، وكان عليه الصلاة والسلام مع ذلك قاضيًا يفصل فى الدعاوى بالبينات، أو الأيمان، أو النكول.

وحكم هذا كسابقه، ليس تشريعًا عامًا، حتى يجوز لأى إنسان أن يقدم عليه بناء على قضائه به، وفصله فيه بحكم معين، بين من حكم بينهم، بل يتقيد المكلف فيه بحكم الحاكم، لأن الرسول تصرف بوصف القضاء. ومن هذه الجهة لا يلزم أن يكلف إلا بقضاء مثله، فمن كان له حق على آخر ويجحده وله عليه بينة فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم، لأن هذا هو الذى كان شأن أخذ الحقوق عند التجاحد على عهد الرسول ﷺ.

ومن المفيد جدًا معرفة الجهة التى صدر عنها التصرف، وكثيرًا ما تخفى فيما ينقل عنه ﷺ ولا ينظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله

أوقاله أو أقره.. ومن هنا نجد أن كثيرًا مما نقل عنه ﷺ صُوّر بأنه شرع أو دين أو سنة أو مندوب. وهو لم يكن فى الحقيقة صادرا على وجه التشريع أصلاً. وقد كثر ذلك فى الأفعال الصادرة عنه ﷺ بصفة البشرية أو بصفة العادة والتجارب. ونجد أيضًا أن ما صدر على وجه الأمانة أو القضاء قد يؤخذ على أنه تشريع عام. ومن ذلك تضطرب الأحكام وتختلط الجهات، وقد تكون معرفة الجهة فيما يمكن من كل ذلك واضحة جلية فيتقيد كل فعل بالجهة التى صدر عنها.

وقد يشتبه الأمر على الناظر فى معرفة الجهة التى صدر عنها الفعل فيقع خلاف بين العلماء فى صفة التشريع تبعًا لخلافهم فى الجهة التى صدر عنها ذلك التشريع.. وضرب لذلك أمثلة.

لقد كانت سنته عليه الصلاة والسلام - وستظل - نور هداية للمسلمين تهديهم إلى سواء السبيل، وترشدهم إلى ما فيه الخير لدينهم ودنياهم.. ففى السنة بجانب التشريع على الخلق القويم، وتقويم حياة الإنسان، ليكون جديرًا بحياته التى يحياها، والحياة الأخرى التى ينتظرها فى العالم الآخر.

وصدق رسول الله ﷺ فقد قال:

«نَضَّر الله عبدًا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأدّاها. فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

ومن هنا فقد تجشم الصحابة والتابعون الكثير حتى يحفظوا ما قاله الرسول من الأحاديث النبوية الشريفة إلى أن أمر الخليفة الزاهد عمر ابن العزيز بتدوينه وما تبع ذلك من حرص الناس على التأكد من صحة الأحاديث التى وردت عن الرسول الكريم، وتأكيدها عن طريق البحث عن مصادرها ودرجة الوثوق فيمن رووا هذه الأحاديث. . ويروى عن أنس رضى الله عنه قوله:

كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتيه الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع فأتاه رجل منهم فقال:

يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك.

قال: «صدق».

قال: فمن خلق السماء؟

قال: «الله».

قال: فمن خلق الأرض؟

قال: «الله».

قال: فمن نصب هذه الجبال؟

قال: «الله».

قال: فمن جعل فيها هذه المنافع؟

قال: «الله».

قال: فبالذى خلق السماء والأرض. ونصب الجبال، وجعل فيها هذه المنافع آلله أرسلك؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلنا.

قال: «صدق».

قال: فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا صدقة فى أموالنا.

قال: «صدق».

قال: فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر فى سنتنا؟

قال: «صدق».

قال: فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟

قال: «صدق».

قال: فبالذى أرسلك أألله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن.

فلما مضى قال: «لئن صدق ليدخلن الجنة».

* * *

فلنعض على سنة الرسول بالنواجز.. لأنها الشارحة لكتاب الله.. والتى تكسب المسلم طهارة القلب والوجدان، وتدفعه إلى الطهر والنقاء وتفتح له طرق الأرض وطرق السماء!.

***



الإسـلام وهـذا العصر



الإسلام وهذا العصر

الإسلام هو هدية السماء للإنسانية.

إن فيه من المبادئ والتشريع والقيم، بجانب ما فيه من عقائد واضحة، ما يرفع الإنسان إلى مرتبة تليق بهذا الذى جعله الله خليفته فى الأرض.

والإسلام هو الذى رفع من شأن المسلمين، وجعل لهم حضارة بازغة، وفكرًا مستنيرًا، وجعل منهم قادة علم وروح وفكر وحضارة، ورسل تنوير، ودعاة خير، ورعاة فكر خلاق.

لأنه الذى حثهم على فهم الكون وكتابه المقترح كحرصهم على تلاوة كتاب الله والعمل بما جاء به.

والإسلام الذى انتشر بسرعة الضوء من سهول الصين إلى ربوع الأندلس،وحمل معه حضارة غزت القلوب والعقول، ومدت أضواءه فى كل مكان، هو الذى رفع من شأن أتباعه وجعلهم خير أمة أخرجت للناس.

وإذا كان الإسلام قد فعل بالمسلمين فى عصورهم الذهبية ذلك وجعلهم قادة الدنيا كلها.. فإن الإسلام اليوم يحاول أعداؤه

محاصرته فى خندق.. لا أدل على ذلك من تلك الصيحات التى نسمعها صباح مساء فى أجهزة الإعلام الغربية، ومن قادة الفكر والسياسة والاقتصاد فيه، يحذرون فيها من خطر الإسلام بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، هذا السقوط المدوى الذى شيعه العالم بالأسف لما كان ينادى به من إلحاد وديكتاتورية ونظم شمولية تقضى على كل إنسانية للإنسان!

ولكن لماذا الهجوم على الإسلام والخوف منه؟ الإسلام ليس دين إرهاب، بل هو دين التسامح والحب والإخاء بين جميع الأديان، فقد أمر أتباعه بعدم إكراه أحد على الدخول فيه:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إنهم يحاربونه لأنهم يعرفون أن أتباعه عندما يتمسكون به يصبحون قوة لا تقف أمامها أية قوة، وتصبح لديهم القدرة على تخطى الصعاب، والتقدم فى مختلف الميادين العلمية والثقافية والفنية والحضارية لأنه دين انفتاح لا دين انغلاق.. والذين فهموا غير ذلك لم يفهموا الإسلام فهمًا حقيقيًا.. فالعيب فيهم وليس فى الإسلام.

والفكر الإسلامى لديه القدرة على استيعاب نتاج الحضارات الأخرى وهضمه وشرحه، والاستفادة منه، وهذا ما جعل الفكر الإسلامى هو السبب فى نهضة أوربا.

يقول جوستاف لوبون:

(كلما أمعنا فى درس حضارة العرب وكتبهم العلمية وأخذ علمهم

وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها - مدة خمسة قرون - موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم الذين مَدَّنوا أوربا مادة وعقلا وأخلاقًا، وتأثير العرب عظيم فى الغرب، وهو فى الشرق أشد وأقوى).

ويقول أيضًا:

(الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليونانى القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ﷺ وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها. ككتاب (أبو دلونيوس) فى المخروطات، وشروح جالينوس فى الأمراض السارية، ورسالة أرسطو فى الحجارة، الخ وإنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافًا أبديًا).

قال (مسيو ليبرى):

(لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا فى الآداب عدة قرون).

وقارئ ما كتبه مفكرو الغرب يعرف كم هو مدين للعرب فى

التقدم العلمى والحضارى.. وما كتبوه عن ذلك لا تكفيه عشرات المجلدات.

ولكن السؤال: كيف ينهض العالم الإسلامى من جديد؟ وكيف يؤدى دوره فى عالم اليوم، وكيف لا يصبح العالم الإسلامى عالة على مائدة الغرب؟

إن فيلسوف الإسلام الدكتور محمد إقبال فى كتابه (تجديد الفكر الدينى فى الإسلام) يرى أن الإنسانية فى حاجة إلى ثلاثة أمور:

* **تفسير روحى لحقيقة العالم.**

* **تحرير روحى لذات الفرد.**

* **إيجاد نظام من المبادئ العالمية يوجه تطوير المجتمع الإنسانى على صعيد روحى.**

وينقد إقبال حضارة أوربا بقوله:

(إن فلسفة أوربا المثالية لم تصبح فى يوم ما عاملاً فعالاً فى حياتها العملية، فأسفرت عن ذاتية منحرفة تحاول تحقيق نفسها عن طريق ديمقراطيات متنافرة متباغضة.. صدقونى إن أوربا اليوم لهى أكبر عقبة فى سبيل التقدم الأخلاقى فى حياة الإنسان).

ويتساءل إقبال سؤالا ويجيب عليه.

السؤال:

هل نستطيع أن نحتفظ بالإسلام من حيث هو نظام مثالى للأخلاق، وأن نرفضه كنظام سياسى، ونستعيض عنه بسياسة قومية لا تفسح فيه مجالاً للعامل الدينى؟

ويجيب بقوله:

ليس الدين مجرد تجربة خاصة، تجرى داخل المرء دون أن يكون لها تأثير فى محيطه الاجتماعى، إن الإسلام تجربة شخصية مفضية إلى قيام نظام اجتماعى، تشتق فيه الأصول اللازمة لنظام سياسى. إن المثل الدينية فى الإسلام، متصلة اتصالاً وثيقًا بالنظام الاجتماعى الذى انبعثت منه، وإذا كان قيام نظام سياسى على قواعد صرفة، من شأنه أن يزحزح مبادئ التضامن الإسلامى فهو أمر لا يمكن أن يتصوره المسلم.

ويقول إقبال:

إن ديموقراطية الإسلام تتسع لكل الإمكانيات الاقتصادية.. بل هى مبدأ روحى قائم على أن كل كائن بشرى، إنما هو مركز لقوة كامنة تستطيع إخراجها، بأن تتعهد فى كل منها ضربًا من السجايا الخلقية.

ويقول إقبال أيضًا:

إن معضلة الخبز تزداد، لكننا نجد لحسن الحظ حلا موفقًا لها

بتطبيق شريعة الإسلام، وبتوسيع أحكامها على ضوء الفكر الحديث.

لقد توصلت بعد دراسة للشريعة الإسلامية دراسة دقيقة طويلة، إلى أنه حيث يتيسر فهم هذه الشريعة فهمًا جيدًا، ويتم تطبيقها كما ينبغى، فإن حق العيش يعدو مضمونًا للجميع.

وربما كانت كلمات الدكتور زكى نجيب محمود وهو يتحدث عن (الفكر الإسلامى وآفاقه الجديدة) تضع النقاط فوق الحروف عن أهمية فهم فكرنا الإسلامى حتى ننطلق إلى حضارة العصر متسلحين بالفكر الإسلامى وعناصره الدافعة إلى التفوق والانطلاق.

فهو يرى أن مما ينبغى لنا أن نفعله بفكرنا الإسلامى اليوم هو أن نصنع بمشكلات حياتنا مثل الذى صنعه الأوائل فى مشكلات حياتهم، فلا نتكلف المسائل ولا نتصنع الصعوبات، ولا نقيد مشكلات السلف وندعى أنها مشكلاتنا. إذن فالخطوة الصحيحة الأولى على الطريق الصحيح هى أن نسأل أنفسنا صادقين مخلصين:

ما هى مقومات السير التى تقيد خطانا فى عصرنا؟ وماذا تكون حلولها من منظور إسلامى، بمعنى أن تجىء تلك الحلول غير متعارضة ولا متناقضة مع العقيدة وشريعتها.

وهنالك فرق بين أن نبحث عن تلك الحلول فيما بين أيدينا من كتب السلف، وبين أن نصل فاعلية العقلية الخاصة على المشكلات التى تعترضنا، مراعين ألا تجىء نتائجنا الفكرية غير متعارضة مع أصول العقيدة الشرعية.

وبمثل هذه الوقفة وحدها يمكن القول بأن لنا ما يصح أن يطلق عليه اسم (الفكر الإسلامى). لأن الفكر فى هذه الحالة هو فكرنا.. والمشكلة مشكلتنا. وليس للسلف علينا درجة تبيح أن ننقل عنهم المسائل وحلولها. إنه من الخير أن نرسم خطًا فاصلا نفرق به بين ما نصفه بأنه (فكر إسلامى) من جهة وبين ما يصح وصفه بأنه فكر (المسلمين).. فالدائرتان متداخلتان إلى حد قد يؤدى بنا إلى شىء من الغموض، فعلى الرغم من أن الفكر الإسلامى قد اضطلع بعظمة المسلمين إلا أن المسلمين قد كان منهم إلى جانب ذلك علماء ذوو فكر إنسانى عام لا يتقيد بصفة تقصره على ديانته دون ديانة أخرى.

فبينما الفكر الإسلامى كما أسلفنا هو الفكر المتعلق بالعقيدة الإسلامية وشريعتها نرى للمسلمين فكرًا فى شتى نواحى العلم والمعرفة، مما لا يختص بالعقيدة والشريعة وليس فيه من الإسلامية إلا إسلام صاحبها. فعالم الرياضة وعالم الفلك، وعالم الكيمياء، وعالم البصريات، بل ونستطيع أن نضيف أنواعًا أخرى من دروب الكتابة كالرحلات ونقد الأدب وعلم الحيوان، وعلم النبات وغيرها. كل تلك دروب من العمل ودروب من المعرفة قام بها المسلمون حتى لقد أصبحت جزءًا مهمًا فيما نسميه بالتراث العربى، إلا أنه لا يندرج فيما نسميه بالفكر الإسلامى أو قل إنه لا ينبغى له أن يندرج حتى لا نتعرض بعد ذلك للخلط بين مجال ومجال. وهو خلط يحدث فعلا ويسوقنا إلى مطالبة المفكر المسلم الذى يجول بفكره فى مجال علمى محايد بأن يلتزم بما لا يلزم فى منهجه العلمى.

ويختم دراسته بقوله:

لقد كان محمد إقبال بكتابه (تجديد الإسلام) نجمًا من ألمع النجوم بريقًا فى سماء الفكر الإسلامى الحديث، ولعل أبرز حقيقة ما أورده فى ذلك الكتاب هو دور (العقل) فى حياة المسلم كما أرادها القرآن الكريم، فلقد كان الإسلام هو الديانة الوحيدة التى أحالت الإنسان إلى عقله فيما تستحدثه له الحياة من مشكلات.

ومن هنا كان الإسلام آخر الرسالات الدينية، لأن الرسالة بعد ذلك أصبحت منوطة بعقل الإنسان، وإذا أخذنا بإحكام الإنسان إلى عقله فقد اعترفنا جميعًا بضروة إحكامه إلى (العلم) بما يكشفه عن حقائق العالم، بمنهجه فى البحث وهو منهج فصلت القول فيه الكتب المختصة بهذا الجانب من الفكر العلمى وحسبنا هذه اللفتة (الإقبالية) لنتجه بالفكر الإسلامى نحو آفاقه الجديدة.

***

المراجـــع

* القرآن الكريم.

* تفسير القرطبى.

* تفسير الألوسى.

* تفسير الإمام محمد عبده.

* تفسير ابن كثير.

* التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى.

* البخارى ومسلم.

* قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار.

* الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ـ الدكتور عبدالواحد وافى.

* الإنجيل للقديس لوقا.

*الأناجيل دراسة مقارنة لأحمد طاهر.

* حياة محمد. . د. محمد حسين هيكل.

* العقوبات: عباس محمود العقاد.

* فى تحديث الثقافة العربية د. زكى نجيب محمود.

* الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت.
* أيام فى الإسلام لأحمد الشرباصى.
* شذرات من علوم السنة د. محمد الأحمدى أبو النور.
* الإسلام تعقل واستنباط. د. محمد عبدالمنعم القيعى.
* قانون الفكر الإسلامى. د. محمد عبدالمنعم القيعى.
* عقائد المسلمين والعقائد الباطلة.
* حول إعادة تشكيل العقل المسلم د. عماد الدين خليل.
* قواعد الإسلام خمس وخمس محمد صبيح.
* الوحى الإلهى: د. الحسينى عبد المجيد هاشم.

الفهرست

رقم الإيداع ١٠٦٤٣/ ١٩٩٦
ISBN
977-5215-86-2

